سلسلة قضايا تاريخ العلم العربي

1

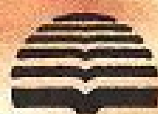
الطبّ العربيّ

رؤية ابستمولوجيّة

الدكتور

ماهر عبد القادر محمد علي





دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

بيروت - ص.ب ١١-٠٧٤٩

سلسلة قضايا تاريخ العلم العربي (١)

الطبّ العربيّ

رؤية ابستمولوجيّة

الدكتور
ماهر عبد القادر محمد علي
كلية الآداب
جامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية



دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١٠٧٤٩

الطبعة الاولى 1997 م.

الناشر



دار النهضة العربية

للطباعة والنشر

الادارة : بيروت - شارع مدحت باشا - بناية كريدية
تلفون : 743166 - 743167 - 736093
برقيا : دانهضة - ص.ب 749-11
فاكس : 735295 - 1 - 00961

المكتبة : شارع البستاني - بناية اسكندراني رقم 3
غربي جامعة بيروت العربية
تلفون : 316202 - 818703

المستودع : بئر حسن - خلف تلفزيون المشرق - سابقا
بناية كريدية - تلفون : 833180

الطبّ العربيّ

رؤية ابستمولوجية

إهـــداء

إلى زوجتي. . .

علامة تقدير ووفاء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تعد قضية دراسة علم الطب العربي من أكبر القضايا المطروحة على الساحة في إطار دراسات علم «تاريخ العلم العربي»، وهذا يفسر لنا النمو المتواصل للدراسات العلمية في هذا الجانب، والتحقيقات التي يصدرها شباب الباحثين العرب لكثير من المخطوطات العربية القديمة التي لا زالت حبيسة في الخزانات. ومن جانب آخر، فإن من بين المبررات القوية والمتعددة لدى الباحثين لازدياد الإقبال على الجوانب المختلفة لعلم الطب العربي، أن حلقة الدرس الطبي في العالم العربي الإسلامي صدرت عنها نظريات طبية متعددة، فكان الإنجاز متنوعاً. وهذه النظريات لم تأخذ بعد حقها من الذيوع والانتشار، على الرغم من أن الغربيين استفادوا من الإنجاز العربي بصورة أكبر مما نتصور. ومن الطبيعي أن تأتي التوجهات السيكولوجية للباحثين مزودة بدوافع الوعي التاريخي، لتدعم هذا الجانب البحثي المهم على صعيد المعرفة بالعلم العربي وأبعاده.

إن ما أقصده بهذه المقدمة أن أوضح بعض القضايا المهمة ونحن بصدد الحديث عن العلم العربي. ومن بين أهم القضايا التي نريد إلقاء الضوء عليها تاريخ العلم العربي ذاته. فقد ذكرت في بداية الحديث «علم تاريخ العلم العربي». . بأي معنى يمكن النظر إلى تاريخ العلم العربي على أنه علم؟

الواقع أن تاريخ العلم العربي يشغل مساحة كبيرة من التفكير العلمي والفلسفي، على المستوى العربي والعالمي معاً، ولا زالت الآراء

والتوجهات البحثية العربية في دراسة هذا العلم المهم تعتمد على الموروث الاستشراقي إلى حد بعيد، وعلى الرغم من تزايد الأبحاث العلمية الحديثة وتراكمها في جوانب علمية أخرى متصلة بتاريخ العلم العربي مثل «علم التاريخ» و «العلم البحت»، وهي ذات أهمية لدارس تاريخ العلم؛ فإن هذا لم ينعكس بصورة فعالة على الدراسات التي تناهت إلينا من نصف القرن الماضي «حول» تاريخ العلم العربي إبستمولوجيا.

لم يلاحظ الكتاب العرب أن المستشرقين الجدد يعملون بدأب شديد لإذكاء روح حركة الاستشراق العنصرية القديمة أيديولوجياً، بصفة خاصة، وتسطيح نظرتها لتاريخ العلم العربي. وقد انعكس هذا التوجه إبستمولوجياً على الدراسات العربية مما جعل الكتاب ينظرون إلى تاريخ العلم العربي على أنه نوع من التاريخ الذي يعتمد على السرد التاريخي لقصص العلماء وإنجازاتهم. وترتب على هذا أن جاءت الدراسات الوليدة «حول» تاريخ العلم العربي، لم تكن «في» العلم العربي. والفارق بين التصورين جدُّ دقيق، إذ أن تصور «حول» إبستمولوجيا لا يعني أن الكاتب يحدثنا عن الموضوع، وإنما هو ينسج رواية جديدة، رواية تصور لنا وقائع قديمة. وهنا فإن الكاتب عادة يحاول توظيف الوقائع لتتسق مع رؤيته السيكولوجية الخاصة التي لا تخلو من أحكام القيمة. وفي غالب الظن ينتهي الموقف إلى رسم صورة وردية لماضي العلم العربي في شكل رواية تاريخية جديدة تعتمد على السرد التاريخي الذي لا يُعمل النقد أو التحليل المقارن.

والملاحظ على الكتابات العربية التي تتناول تاريخ العلم العربي، وفق هذا المنظور، أنها تقع في أربع فئات. أما الفئة الأولى فتمثل الكتاب ذوي الميول التاريخية، وهؤلاء عادة يجعلون الماضي وحده الموضوع الأساسي لدراستهم، حيث يحاولون دراسة ما وقع فيه من أحداث، وفي أي زمن وقعت، وما الشخصيات المحورية فيه، ومدى إمكان الاستفادة من دروس

الماضي لاستخلاص العبرة التي تفيد في الحاضر والمستقبل.

ودراسات هذه الفئة تنبني أصلاً على تحليل النصوص (باعتبارها وثائق) داخلياً وخارجياً، ونقدها ومحاولة التثبت من مضمونها. ومثل هذه الدراسات تلتزم بالتاريخ وحده، على الرغم من إدراكها لاتصال التاريخ بالعلوم الإنسانية الأخرى، وتبادله التأثير والتأثر مع هذه العلوم. وفي خضم هذه النظرة لا يدرك الكاتب عادة أن تاريخ العلم شيء آخر مخالف تماماً للتاريخ ذاته، فهو عملية عقلية اخترعها العقل البشري اختراعاً؛ ويتصل بصورة مباشرة بالعلوم الطبيعية، وهو ما يبدو من المصطلح المركب «تاريخ العلم» History of Science.

وأما الفئة الثانية فتمثل الفلاسفة الذين يكتبون «حول» تاريخ العلم العربي. وهذه الفئة تعرف عادة أصول الفكر الفلسفي وأبعاده، وكيفية توظيف الفكرة إبستمولوجياً، لكنها لم تتلق تدريباً تاريخياً، أو علمياً، بحيث يصبح بإمكانها الربط وظيفياً بين الفلسفة والتاريخ والعلم، وتلك مشكلة رئيسية تنتمي إلى تاريخ العلم العربي. والحق أن الإنتاج الغزير والدراسات التي صدرت «حول» تاريخ العلم العربي كانت من نصيب هذه الفئة التي حاولت أن تنظر إلى تاريخ العلم العربي على أنه عملية إبداع عقلي صدر في فترة زمنية معينة. وهذه النظرة تحاول عادة أن تركز على دراسة الإيجابيات وتعمل على تأصيلها فلسفياً.

وأما الفئة الثالثة فتمثل العلماء الذين كرسوا شطراً لا بأس به من كتاباتهم لدراسة الإنجاز العلمي العربي ومدى تأثيره في نظريات الغرب الحديث، وإلى أي حد تشابهت النظريات والآراء، والاستفادة التي حصلها الغرب من انتقال الكتابات العربية إلى أوربا. وقد جاءت كتابات هذه الفئة أيضاً «حول» العلم العربي، ولم تتخلص من النظرة الأحادية للعلم العربي.

وأما الفئة الرابعة فيمثلها علماء اللغة الذين تقوم دراساتهم في هذا

الصدد على المنتوج اللغوي المعبر عن حضارة الأمة؛ إذ أن اللغة تمثل الشفرة الأساسية للنصوص أو الوثائق التي لدينا، وحتى يمكنهم فهم وثيقة ما لا بد من الوقوف على أسرار المعاني الكامنة وراء الألفاظ وتتبع دلالاتها. لأن اللفظ الذي استخدم في عصر ما قد تختلف دلالاته في عصر آخر. وهذا يعني أن عملية تفسير النصوص والوقوف على مضمونها اللغوي تشكل التوجه الرئيسي لعالم اللغة. إن هذه النظرة تعكس لنا جانباً أحادياً لرؤية النص، فيصبح السياق الحضاري للنص باعتباره لغة هو الحكم الرئيسي في تقييم تاريخ العلم العربي. وعلى الرغم من وجاهة هذه النظرة؛ فإنها لا تستطيع أن تقدم لنا تفسيراً لأهمية التصور العلمي لدى العالم إبستمولوجيا، أو لفهم بعض المعلومات أو الأحداث التاريخية المدونة في الوثائق.

والجدير بالملاحظة أن المتلقي لسياق الخطاب «حول» تاريخ العلم العربي إما أن يزداد إعجاباً بتاريخ العلم العربي انطلاقاً من تعاطفه الذاتي مع الموضوع سيكولوجياً، ولاتصال الموضوع بالماضي، أو «التراث»، الذي ينبغي الحفاظ عليه وتأصيل أبعاده في الحاضر حتى لا ينكرنا المستقبل، أو تجد المتلقي وقد انفصل إبستمولوجياً عن سياق خطاب «حول»، لانغماسه في تمجيد الذات على حساب الموضوع دون اعتبار للثوابت العقلانية التي تحكم العلاقة بين الذات والموضوع إبستمولوجياً، الأمر الذي تغيب معه أبعاد النقد، وينطمس فيه ملمح التحليل، وتختفي المشكلات، وتتمحور الذات حول نرجسية غريبة لا تعطي إمكانية للتقدم العلمي، ولا تشير إلى مكانة العلم العربي بصورة موضوعية.

ولا شك أن هذه النتيجة الغريبة في شقها الثاني على وجه الخصوص، سيطرت على المشاريع الفكرية العربية التي طرحت على الساحة كمشاريع نهضوية ترددت بين تيارات القطيعة مع التراث، أو الدفاع المجيد غير المبرر عنه، الذي استدعى بالضرورة إنكار بعض المفكرين أهمية العلم العربي

نتيجة خلط تلك المشروعات النهضوية بين «التراث» و «العلم العربي» وتوحيدها بين المصطلحين، على الرغم من التباين بينهما؛ أو حتى تيارات التعايش مع التراث ومحاولة التحديث.. لم يدرك كل هؤلاء الفارق الجوهري بين التراث الذي هو إرث الماضي، والعلم العربي الذي يشكل في قوامه إنتاجاً معرفياً له كل مقومات العلم. ولقد أدى الخلط بين التصورين إلى فقدان اكتشاف العلم العربي باعتباره فاعلية إنسانية.

وإذا انتقلنا إلى التصور الثاني، وهو أن الدراسات التي لدينا لم تكن «في» العلم العربي، فإننا ندرك أن هذا التصور، على النقيض من التصور الأول، يأخذنا بعيداً عن السرد التاريخي لينطلق بنا مباشرة إلى آفاق الإبستمولوجيا التي تشكل ميداناً مختلفاً من التصورات التي تجعل الدارس يقرن النقد بالتحليل، وينتقل من مستوى إبستمولوجي (معرفي) معين يعتمد على قراءة النص والانفعال به، إلى مستوى آخر يعتمد على تفكيك النص من أجل معرفة المشكلات التي واجهت العَالِم في تفصيلاتها والعلاقات القائمة بينها، وعلاقتها بالسياق المشكل السابق عليها، وما انطوت عليه النظريات السابقة، ومدى تطويرها لها أو تأييدها لبرنامج بحثي جديد (كما يرى لاكاتوش). كل هذا من أجل إعادة بناء النص وتوظيف الفكرة إبستمولوجياً (على مستوى التصورات) وأيديولوجياً (على مستوى الواقع). إن تصور («في» العلم العربي) على هذا النحو يعني دراسة العلم العربي باعتباره علماً. وهذا التحول الذي ننادي به يستلزم إحداث ثورة علمية عقلية على المستوى الأكاديمي في مجال دراسة (علم تاريخ العلم العربي) الذي قد حان الوقت لولادته بصورة طبيعية، وتخليصه من أفكار وأقلام من يكتبون سطوره بتسطيح مفرط. وأركان الثورة العلمية العقلية التي نشير إليها تتمثل في أمرين: أحدهما سلبي، والآخر إيجابي.

أما البعد السلبي فيدخلنا مباشرة في مواجهة مع المنظور الاستشرافي،

الذي يجب أن نحيده، أو نتخلص منه. وهنا تقفز إلى الذهن البدايات الأولى من القرن السابع عشر في أوروبا، حين أرادت أوربا أن تستيقظ من غفوتها بعد قرون طويلة من الظلام الفكري، كان البعد العقلاني المتمثل في دعوة فرنسيس بيكون (رائد المنهج في العصر الحديث) نبراساً للنهضة العلمية في أوروبا؛ إذ أن بيكون في كتابه «الأورجانون الجديد» (١٦٢٠) رسم أبعاد الفكر العلمي إبستمولوجياً، وأراد لهذه الأبعاد أن تصبح منهجاً علمياً وفكرياً راسخاً للحضارة الغربية. وفي هذا الإطار رفض بيكون، في الجانب السلبي من الأورجانون الجديد، الآراء والنظريات القديمة بما فيها آراء أرسطو، وأراد للعلماء أن يتخلصوا من الأوهام التي تتسلط على العقول وتجعلهم يعتقدون في قداسة النظريات القديمة، حتى يمكن للعقل أن يقبل على الطبيعة بصورة موضوعية مجردة عن الهوى. ونحن في ثورتنا العقلية التي ننادي بها نريد بالقدر نفسه لأبحاثنا العلمية «في» علم تاريخ العلم العربي أن تتخلص من تأثير وتسلط دراسات المستشرقين التي كادت الأبحاث والدراسات العربية ـ مهما كانت درجة نقدها لتلك الدراسات ـ أن تكون نسخة طبق الأصل منها.

أما البعد الإيجابي في ثورتنا العلمية العقلية فيجب أن يتقدم مباشرة إلى بناء إبستمولوجيا العلم العربي من منطلق البحث عن التصورات والوقوف على بنيتها الأساسية. وهنا تواجهنا نقطة جوهرية، إذ أن إعادة بناء إبستمولوجيا العلم العربي تعني بالضرورة النظر للعلم العربي على أنه نسق منظم من المعرفة العلمية يصبح بمقتضاها فاعلية إنسانية، وهو ما يجعل أطراف حدوده متداخلة. وتلك نقطة هامة بالنسبة لعلم تاريخ العلم العربي؛ إذ يتعين على الباحث في هذه الحالة أن ينتقل من مجرد فكرة إعادة البناء إبستمولوجياً إلى النسق ككل.. هذا الانتقال سوف يشكل قاعدة الاتصال العلمي الأساسية بين أطراف سياق الخطاب العلمي. وهنا تبدو أهمية تفعيل معطيات الجانب الإيجابي بالصورة التي تكشف عن تفصيلات هذا الجانب وتبدد النظرة الكلاسيكية للعلم العربي.

إنه إذا كان تاريخ العلم العربي يشكل علماً من وجهة نظرنا، بوصفه إنتاجاً عقلياً وفاعلية إنسانية تتوافر فيه قواعد العلم وأصوله، فإنه لا بد من تفصيل نسقيته وتوظيف أفكاره، وهذا يعني بالضرورة أن اختلاف الرؤية الإبستمولوجية من «حول» إلى «في»، وفق الإشارة السابقة، تتطلب منا أن نحاول تطبيق هذا المنظور، وهو ما قمنا به على دراسة جزئية في الطب العربي، إذ حاولت هذه الدراسة أن تتتبع الإسهامات الإبستمولوجية وقواعد البحث العلمي وتقاليده في القرن السابع الهجري، لمعرفة إلى أي حد أسهم النمو العلمي الإبستمولوجي في تفرد الإنجاز العلمي العربي في هذا الميدان، وذلك من خلال دراسة المدرسة الدخوارية من خلال إنجاز أعلامها: الدخوار ـ ابن النفيس ـ ابن أبي أصيبعة.

والواقع أن المدرسة الدخوارية ظلت قائمة بعد رحيل مؤسسها الأول (الدخوار) لأكثر من قرنين ونصف من الزمان، تؤدي دورها في الحياة العلمية والعملية في مجال الطب في العالم العربي الإسلامي. وفي هذه المدرسة تخرج الأعلام الذين حملوا مبادئ الأستاذ وتعاليمه. ويكفي أن نشير إلى ابن النفيس أو ابن أبي أصيبعة، إذ اكتشف الأول الدورة الدموية ونقلت كتاباته إلى الغرب عن طريق أندريا الباجو، الذي عرفت آراء ابن النفيس عن طريقه. أما ابن أبي أصيبعة فهو صاحب الموسوعة الطبية الرائعة التي أرخت للطب والأطباء في العالم العربي الإسلامي منذ النشأة الأولى حتى عصره في القرن السابع الهجري.

إن هذه الدراسة تعرض لطبيعة مدرسة الدخوار انطلاقاً من حياته ومجلسه العلمي، وتتناول تلامذته الذين تعلموا عليه وأخذوا عنه، والمكانة العلمية التي يمثلها هؤلاء التلاميذ الذين أصبحوا رواداً في علم الطب والتأريخ الطبي. كما أن هذه الدراسة تعد بالمعيار نفسه حلقة من حلقات العلم والدرس الطبي تتواصل وتتكامل مع دراسات أخرى لتسهم معها في

إرساء مفهوم علمي يعبر عن إنتاج العلماء والمفكرين العرب وأهميتهم في تاريخ العلم الطبـي بصفة خاصة، من وجهة النظر الإبستمولوجية.

وعلى صعيد آخر حين تعرض الدراسة لابن النفيس باعتباره من أهم تلامذة الدخوار، إنما تتناوله من خلال تصورين أساسيين يمثل أولهما الإشكالية التي لازمت ابن النفيس في الغرب، وتناقضات الغربيين أنفسهم في أقوالهم حول ابن النفيس، وما يمثله هذا من رصيد جديد مكتشف يدل على تعصب الغرب وإنكاره للإبداع العربـي الإسلامي، انطلاقاً من مقولة الغرب الأساسية: الإبداع غربـي وسيظل كذلك. والأمر الثاني اكتشاف ابن النفيس اللغوي صاحب نظرية في المعنى والدلالة ـ وهو مستوى آخر عرفه الغرب وتعامل معه دون أن يُعطي ابن النفيس حقه في هذا الجانب ـ أثرت في الغرب وتطورت بصورة كبيرة من خلال دراسات علماء اللغة الغربيين وأبحاثهم. وهذا الجانب لا زال بحاجة لمزيد من الدراسات والتحليلات الإبستمولوجية التي يمكن أن تكشف عن أبعاد الصلات المعرفية بين الشرق والغرب.

أما ابن أبـي أصيبعة صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» فهو واحد من أهم شخصيات المؤرخين للطب قاطبة، إذ أن كتابه يعد علامة بارزة في تاريخ الطب العربـي. وهو المصدر الرئيسي في الكتابات الحديثة والمعاصرة التي أرخت للطب العربـي مما يعني أن مادته العلمية غزيرة، وذات قيمة علمية كبيرة، فضلاً عن قيمتها التصديقية العالية، وهو ما يبدو في كثير من المواضع من تحري الأخبار والروايات التي رويت لابن أبـي أصيبعة، أو حتى تلك التي نقلها عن بعض الكتابات القديمة.

وأهمية كتاب «عيون الأنباء» الذي نعتبره ثروة قيمة، لا تتوقف عند حدود المادة العلمية، وإنما تتجاوزها إلى مرحلة التأريخ الواعي للذات؛ إذ على الرغم من اعتماد ابن أبـي أصيبعة على كتاب «الفهرست» لابن النديم؛ فإن ابن النديم كان يدون تاريخ الرجال والمؤلفات، بينما كان ابن أبـي

أصيبعة يدوّن تاريخ العلم مغلفاً بأخبار الرجال ومجالسهم مما يدل على وعيه العلمي وإدراكه الفكري لأهمية هذا التأريخ إبستمولوجياً.

ومن هذا المنظور يكشف لنا كتاب «عيون الأنباء» عن أهمية الإبستمولوجيا ودورها في التأريخ، وعن العلاقة الوثيقة بين التاريخ الإبستمولوجي والتاريخ ذاته باعتبارهما مستقلين. ومع أن الدراسات العديدة التي صدرت بعد ابن أبي أصيبعة لم تتبنَّ هذا المنظور؛ فإنها في كثير من مواضعها استرشدت به، وتلك نقطة مهمة يجب أن نتنبه إليها، لأنها تمثل فارقاً جوهرياً بين كتاب «عيون الأنباء» وغيره من الكتابات التي سبقته مثل «الفهرست» لابن النديم، و «طبقات الأطباء» لابن جلجل، وهذا ما جعلنا نختار ابن أبي أصيبعة للتعبير عن هذا الجانب من مدرسة الدخوار، حتى تكتمل ملامح الصورة التي تمثلها المدرسة الدخوارية في جانبيها الطبي والتأريخي، مما قد يكشف أضواء بحثية جديدة أمام أجيال الباحثين الجدد الذين يقدحون فكرهم من أجل بعث نهضة علمية وثقافية جديدة تواكب مفردات القرن القادم.

وأجد لزاماً عليَّ اعترافاً بالفضل، ورده إلى أهله، أن أشير إلى أنني استفدت كثيراً من الملاحظات التي أبداها لي المرحوم الأستاذ الدكتور حسين شرف، خاصة فيما يتعلق بالقسم الثالث عند ابن أبي أصيبعة ومنهجه في كتابه عيون الأنباء.

والله أسأل التوفيق،

بيروت/ وايت بالاس/ — ماهر عبد القادر محمد

في ٢٢/ ١١/ ١٩٩٦

القسم الأول

الدخوار وتأسيس المدرسة الدخوارية

الفصل الأول : حياته: النشأة والتطور.

الفصل الثاني : شيوخه.

الفصل الثالث : مجالس التعليم الطبي.

الفصل الرابع : تلامذته.

الفصل الخامس : زملاؤه.

الفصل السادس: مؤلفاته.

الفصل الأول

حياته: النشأة والتطور

هو العالم الفاضل والطبيب البارع مهذب الدين أبو محمد[١] عبد الرحيم[٢] علي بن حامد[٣]، المعروف باسم الدخوار[٤]، الدمشقي، شيخ الأطباء، ورئيسهم بدمشق[٥] والديار المصرية[٦]، ولد سنة خمس وستين وخمسمائة، لأبيه علي بن حامد الذي كان كحالاً مشهوراً، وزاولت أسرته صناعة الكحل (طب العيون) التي تبحث عن صحة عين الإنسان وإزالة أمراضها[٧] وقد عمل أبوه على تنشئة ولديه (علي بن حامد) و (مهذب الدين) على محبة صناعة الطب بصفة عامة، والكحل بصفة خاصة، فزاول عليّ صناعة الكحل على أحسن ما يكون، واشتغل مهذب الدين بالكحل في مبدأ أمره وذاع صيته، فقد عرض للملك العادل مرض بإحدى عينيه فعالجه وشفي. يقول ابن أبي أصيبعة: «وخدم الحكيم مهذب الدين الملك العادل أبا بكر ابن أيوب بصناعة الطب، وكان السبب في ذلك أنه في أول أمره كان يزاول صناعة الكحل ويحاول أعمالها، وخدم بها في البيمارستان الكبير»[٨].

ويبدو أن صناعة الكحل في ذلك الزمان ارتبطت بالظروف الصحية والبيئية، إذ أن أمراض العيون كانت متفشية في تلك الآونة، وكان من الطبيعي أن يتجه الأطباء لمعالجة العين مما يصيبها نظراً لما في ذلك من منافع جمة. وهذا ما أتاح لأطباء العيون أيضاً إحراز تقدم علمي في مجال معرفة أمراض العين وتشخيصها وعلاجها وفق ما انتهت إليه معرفتهم العلمية.

بعث علي بن حامد بابنه إلى مشاهير رجال العلم في عصره، لينهل منهم أحسن ما عندهم وليتفقه في العلوم، فقد كان العلم شيمة رجال عصرئذ، وكانت الأسر تتوارث هذا التقليد كابراً عن كابر. وكانت الظروف

الاجتماعية والاقتصادية تسمح بذلك، فالأمراء والملوك يغدقون الأموال على العلماء ويشجعونهم ويطلقون لهم العنان لتحسين الأحوال العلمية والطبية بين المسلمين؛ ولنا فيما فعله الملك العادل نور الدين بن زنكي خير مثال، فقد أنشأ البيمارستان الكبير ووقفه لصالح المسلمين، وجند له خيرة أطباء العصر.

اجتهد مهذب الدين في تحصيل صناعة الطب، وعمل على طريقة شيوخ عصره، فالتحق بمجلس العلامة الشيخ تاج الدين الكندي أبـي اليُمن، ليدرس عليه العربية والحديث فلازمه، واشتغل عليه، وحفظ عنه، وتعلم أصول الرواية، وكيفية التوثيق. وواظب على الكتابة والنسخ بصورة منتظمة حتى وصف ابن أبـي أصيبعة جملة ما كتبه من كتب بخطه بأنه رأى منها «نحو مائة مجلد أو أكثر فـي الطب وغيره»(٩).

ثم يَمّمَ مهذب الدين عبد الرحيم وجهه شطر أحد مشايخ الطب في عصره، الشيخ رضي الدين الرحبـي، فتلقى عنه، ودرس عليه، ثم لازمه بعد ذلك في مباشرة العلاج في البيمارستان الكبير، فكانت صحبته له بمثابة التدريب العملي الذي يتلقاه طالب الطب على يد الأستاذ الذي يعمل تحت إشرافه ويدرس على يديه كيف يمكن أن يطبق المعرفة التي يتلقاها عملياً.

وفي ذلك العصر أيضاً ذاع صيت موفق الدين بن المطران، فلازمه وتتلمذ عليه، واشتغل بصناعة الطب عليه حتى «تميز وتمهر»(١٠).

ثم قصد مجلس فخر الدين المارديني حين قدم إلى دمشق في سنة تسع وسبعين وخمسـمائة. ويذكر ابن أبـي أصيبعة في معرض حديثه عن المارديني أن من «جملة من اشتغل عليه ولازمه مدة مقامه بدمشق الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي وقرأ عليه الشيخ مهذب الدين بعض كتاب القانون لابن سينا وصححه معه»(١١). وظل مهذب الدين ملازماً لفخر الدين المارديني حتى عام تسع وثمانين وخمسمائة؛ ولما همّ بالرحيل قاصداً ماردين بلده سأله

مهذب الدين إن كان يستطيع أن يبقى ليتم عليه قراءة كتاب القانون ويدفع له نفقته، فلم يقبل المارديني ولقنه درساً بالغ الأهمية في قوله له: (العلم لا يباع أصلاً).

ثم عمل مهذب الدين عبد الرحيم بالبيمارستان الكبير، وكان أن استدعاه الصاحب صفي الدين بن شكر وزير الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وطلب إليه أن يلتحق بخدمة العسكر مع الحكيم موفق الدين عبد العزيز في مقابل ثلاثين ديناراً ناصرية في الشهر، فرفض وطلب أن يكون راتبه مثل موفق الدين عبد العزيز الذي يتقاضى مائة دينار ورواتب مثلها، وقال للصاحب: (إنني أعرف منزلتي في العلم وما أخدم بدون مقرره) وافترقا. ولما مات موفق الدين عبد العزيز بعد شهر نتيجة قولنج عرض له، قال الملك العادل لصاحب: (كنت قد شكرت لنا حكيماً يقال له المهذب نزله على مقرر الموفق عبد العزيز) ففعل الصاحب. وظل مهذب الدين في خدمة الملك العادل ولم تزل منزلته تسمو عنده، وتترقى أحواله، حتى صار جليسه وأنيسه وصاحب مشورته(١٢).

وقد عالج مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار، الملك العادل أكثر من مرة، وفي إحدى المرات بينما كان الملك العادل بالشرق عام عشر وستمائة مرض مرضاً صعباً فتولى علاجه إلى أن برئ مما كان به، فأطلق له الملك العادل نحو سبعة آلاف دينار مصرية، وأرسل إليه أولاد الملك العادل وملوك الشرق بأسره، الذهب والخلع والبغلات بأطواق الذهب(١٣).

وحدث في عام اثنتي عشرة وستمائة أن توجه الملك العادل إلى الديار المصرية وأقام بالقاهرة، وفي هذا الوقت داهم الناس وباء عظيم فهلك خلق كثير، ومرض الملك الكامل ابن الملك العادل، ومرض كثير من خواصه فعالجه الدخوار بألطف علاج حتى برئ، فحصل له من الذهب والخلع والعطايا السنية شيء كثير، «وكان مبلغ ما وصل إليه من الذهب نحو اثني

عشر ألف دينار أو أربع عشرة بغلة بأطواق الذهب، والخلع الكثيرة من الثياب الأطلس وغيرها»[١٤].

وقد تحقق للملك العادل حسن علاجه، ولطف تدبيره، وإجادته لصناعة الطب، وعمله به على أحسن ما يكون، فكان أن ولاه السلطان رياسة أطباء ديار مصر بأسرها والشام؛ وهذه المكانة لا يبلغها إلا طبيب حاذق، جيد العلم، ماهر التدبير.

يقول ابن أبي أصيبعة في هذا الموضع: «وكنت في ذلك الوقت مع أبي، وهو في خدمة الملك العادل، ففوض إليه النظر في أمر الكحالين واعتبارهم، وأن من يصلح منهم لمعالجة أمراض العين ويرتضيه يكتب له خطاً بما يعرفه منه ففعل ذلك»[١٥]. نلاحظ من نص ابن أبي أصيبعة أنه كانت تجري امتحانات، أو اختبارات لأطباء العيون في ذلك الوقت جرياً وراء تقاليد الطب العربي، وهو ما يبدو من استخدام كلمة (واعتبارهم) التي وردت في النص وتفيد الاختبار الذي بموجبه يمنح الطبيب شهادة بأهليته لممارسة المهنة.

وكان الدخوار طبيباً عالماً خبيراً بكل ما جاء في كتب الطب القديمة وكان من أشد المعجبين بكتب جالينوس، وكان خبيراً بكل ما يقرأ عليه منها، وكانت هذه الكتب تروق له كثيراً، فإذا سمع شيئاً من كلام جالينوس في ذكر الأمراض ومداواتها والأصول الطبية يقول: هذا هو الطب[١٦]. يقول ابن أبي أصيبعة مؤرخ حياته: «وكان طلق اللسان حسن التأدية للمعاني جيد البحث، لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب»[١٧].

ولقد أحب الدخوار أن يكون عالماً أصيلاً في العلوم الحكمية فتوجه إلى سيف الدين الآمدي ولازمه ودرس عليه، وكان الآمدي إماماً بارعاً لم يكن في زمانه من يجاريه في علم الكلام، والمنطق وعلوم الأوائل[١٨].

فأتقن الدخوار هذه العلوم وحفظ ونسخ بعض كتب الآمدي، ثم لازم أبا الفضل الإسرائيلي المنجم ودرس عليه الهيئة والنجوم، «واقتنى من الات النحاس التي يحتاج إليها في هذا الفن ما لم يكن عند غيره ومن الكتب شيئاً كثيراً جداً»[١٩].

ومع المكابدة والمعاناة وتقدم العمر ألحت عليه الشيخوخة فعرض له ثقل في لسانه واسترخاء[٢٠]. وابتلى بستة أمراض متعاكسة[٢١]. حتى بقي لا يكاد يفهم كلامه إلا بعسر، ومع هذا ظل مداوماً على التدريس لرواد مجلسه العلمي، فكان الطلاب أمامه «فإذا استعصى معنى يجيب عنه بأيسر لفظ يدل على كثير من المعاني، وفي أوقات يعسر عليه الكلام فيكتبه في لوح وتنظره الجماعة»[٢٢].

وقد اجتهد الدخوار في معالجة نفسه واستفراغ بدنه بعدة أدوية مسهلة، واستعمل المعاجين الحارة فعرضت له حمى قوية. فأضعفت قوته وزادت إلى أن سالت عينه[٢٣]. يلاحظ هنا أن حديث ابن أبي أصيبعة يبدو متناقضاً، إذ ما علاقة (استفراغ) البدن بفقدان (العين) الذي نفهمه من كلمة (سالت عينه)؟ وما علاقة هذا وذاك باستخدام المعاجين؟ ربما كان الدخوار قد أصيب بمرض في عينه إما نتيجة لمخالطة المرضى وعلاجهم وعدم العناية بنظافة اليد بعد الكشف، أو نتيجة لتفشي مرض عرض لعينه. ومعنى أنه استخدم المعاجين ولم تؤدّ النتيجة الموجودة أنه لم ينجح في تشخيص مرضه، ولم يعرف العلاج الملائم. ويلزم عن هذا السؤال عن موقف أطباء عصره (الكحالين) من مرضه: هل قاموا بعلاجه وفشلوا؟ أم أنه رفض أصلاً السماح لهم بعلاجه؟ وهو الأرجح على ما ترى لأن العبارة تقرر أنه اجتهد في معالجة نفسه، مما يعني أن الأطباء لم يشخصوا حالته أو يعالجوه أصلاً.

نقول: كان الدخوار عالم الأطباء، وطبيب العلماء، محباً للعلم والمعرفة، معظماً لأساتذته وتلامذته، لم تكن له زوجة ولا ولد. حصّل علم

الأقدمين وعلم المحدثين، وحَدَّثَ بكل ما يعرف إلى تلميذه المؤرخ الطبيب ابن أبـي أصيبعة. وقد أراد الدخوار لتعاليمه أن تستمر عبر التاريخ وتنتشر بين أجيال المتعلمين، فكان أن وقف داره الواقعة بالقرب من الصاغة العتيقة شرقي سوق المناخلين بدمشق، على طلاب العلم، وجعلها مدرسة للطب طبقت شهرتها الآفاق وعرفت بالمدرسة الدخوارية التي كان شرف الدين علي بن الرحبـي أول مدرس بها حسب وصيته، ثم صار المدرس فيها بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك بمرسوم ملكي من الملك الجواد مظفر الدين.

وفي صفر عام ستمائة وثمانية وعشرين(٢٤) فاضت روحه إلى بارئها واستمر تلامذته على منهجه يتوارثونه ويعلمونه للأجيال، جيلاً بعد جيل، ودامت المدرسة لأكثر من قرنين من الزمان.

وقد اشتهر الدخوار في عصره شهرة طبقت الآفاق، وكان من الطبيعي أن يصبح موضع حسد بعض معاصريه، ومن بينهم بعض الشعراء فقد ذكر لنا ابن أبـي أصيبعة طرفاً من الشعر الذي قيل فيه هجواً، خاصة ما قاله ابن خروف(٢٥) الذي كثيراً ما كان يهجو الدخوار، ومن شعره:

لا ترجون من الدخوار منفعة ... ولو شفى علتيه: العجب والعرجا(٢٦)
طبيب إن رأى المطبوب طلعتهُ ... لا يرتجى صحة منها ولا فرجا
إذا تأمل في دستوره سحراً ... وقال: أين فلان؟ قيل: قد درجا
فشربة دخلت مما يركبه ... جسم العليل وروح منه قد خرجا

وقال فيه أيضاً:

إن الأعيرج حاز الطب أجمعه ... أستغفر الله، إلا العلم والعملا
وليس يجهل شيئاً من غوامضه ... إلا الدلائل والأمراض والعللا
في حيلة البرء قلَّت عنده حيل ... بعد اجتهاد ويدري للردى حيلا
الروح تسكن جثمان العليل على ... علاته فإذا ما طَبَّهُ رحلا

وقال فيه أيضاً:

طبــع المهـــذب عليـــه سيفـاً، وصـال علـى المهـج
بــاب السـلامــة لا يــرى منـــه ولا بـــاب الفـــرج

ومما يرويه ابن أبي أصيبعة: أن ابن خروف لما توجه إلى حلب ومدح الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، رجع القهقرى، وكان ثم بئر فوقع فيها.

ومن شعر الدخوار ما كتبه إلى الحكيم رشيد الدين علي بن خليفة (عم ابن أبي أصيبعة) حين مرض:

يـــا مَـــنْ أؤمِّلُـــهُ لكـــلِّ مُلِمَّـــةٍ وأخـــافُ إن حَـــدَثَـــتْ لـــه أَغـــراضُ
حُـوشِيـت مـن مَـرَضٍ تعـادُ لأجلـهِ وبَقِيــتَ مــا بَقِيَــتْ لنــا أغــراضُ
إنــا نعــدُّكَ جَـوْهــراً فــي عصــرنــا وسِــواك إن عُــدُّوا فهــم أعــراضُ

بعد هذا الاستعراض، الذي قدمناه لحياة عالمنا وطبيبنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار، علينا أن نناقش بعض النقاط الهامة التي يمكن أن نعرض لها فيما يلي:

١ ـ الأساتذة الذين تعلم عليهم ولقنوه كيف يمكن أن يكون عالماً أصيلاً، يتبع سنتهم ويعمل بنصيحتهم، وينقل هذا لتلامذته، ويتوارثه هؤلاء ويورثونه لغيرهم من الأجيال.

٢ ـ طبيعة مجالس العلم في ذلك العصر، خاصة مجالس التعليم الطبي التي اعتبرت سمة مميزة للعصر بأسره، واتصال هذه المجالس، وانتقالها من جيل إلى جيل، وكأنها المشاعل المضيئة على الطريق تهدي من ينشدون صواب الفكر وحقيقة العلم وكيفية العمل.

٣ ـ وكيف أن العالِم في عصر الدخوار كان عليه أن يهتم بالخط والنسخ، ينسخ من الكتب ما استطاع، ويجود في خطه إلى أبعد حد، حتى

وصفت الخطوط بالحسن والجمال.

٤ ـ أهم التلاميذ والأتباع الذين تعلموا على الدخوار وحضروا مجلسه، وفهموا طريقته وتوارثها، وعملوا تحت إشرافه في البيمارستان، ثم ألفوا ودونوا من الكتابات ما أثرى الفكر العلمي الطبي عصرئذ.

٥ ـ بعض أهم الزملاء الذين لازموه في رحلة حياته العلمية، من أهمهم موفق الدين بن سقلاب وعمران الإسرائيلي.

الفصل الثاني
شيوخه

أولاً : تاج الدين الكندي.
ثانياً : رضي الدين الرحبي.
ثالثاً: فخر الدين المارديني.
رابعاً: موفق الدين بن المطران.

يكتسب العالم قيمته وأهميته من الشيوخ الذين تعلم عليهم وقرأ، وقد فهم القدماء هذا المعنى، فكان الرجل يحرص على أن يبعث بابنه أو أبنائه إلى شيوخ العصر ممن ذاع صيتهم في العلم، وعرفت مكانتهم، وعلا كعبهم في المعرفة.

ولا غرابة إذا وجدنا الدخوار الطبيب العالم، يقصد أئمة العلم في عصره، ممن عرف قدرهم، واشتهرت مجالسهم، فنجده يتجه إلى مجلس تاج الدين الكندي علامة العصر، وإمام الوقت، فأقرأه تاج الدين وعلمه كأحسن ما يكون، وغرس في نفسه من الصفات الحميدة ما جعله فيما بعد شيخاً لمدرسة كاملة، كما قصد رضي الله الدين الرحبي شيخ أطباء الشام، فتلقى الطب عليه وأحسن فهمه، وأتم هذا الفهم على وحيد زمانه فخر الدين المارديني التلميذ النجيب لأمين الدولة ابن التلميذ، ثم صاحب موفق الدين بن المطران، فنهل من فيض علمه الكثير، وعرف من خلال صحبته كيف يكون العلاج.

وحسبنا أن نشير إلى أن هؤلاء الشيوخ كانوا بلا منازع علامات بارزة للتقدم العلمي في دمشق التي حملت راية العلم والحضارة، وحفظت المعرفة العلمية للأمة الإسلامية، وتلك هي شيمة دمشق المحروسة وعلمائها ورواد العصر وأقطابه.

١ ـ تاج الدين الكندي (أبو اليمن) (٥٢٠ ـ ٦١٣ هـ):

تتلمذ المهذب الدخوار على الشيخ تاج الدين الكندي علامة عصره

وأوانه، كما تتلمذ عليه آخرون كثيرون تلقوا عنه العلم كما ينبغي، وتتلمذوا في مشيخته[٢٧]. والعلامة تاج الدين الكندي أبو اليمن زيد بن الحسن البغدادي المقرئ النحوي اللغوي شيخ الحنفية والقراء والنحاة بالشام ومسند العصر، ولد في شعبان سنة عشرين وخمسمائة[٢٨]، وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وأكمل القراءات العشر وله عشرة أعوام، يقول ابن العماد، «وهذا ما لا نعلمه تهيأ لأحد سواه»[٢٩]. اعتنى به سبط الخياط، فأقرأه وحرص عليه وجهزه إلى أبي القاسم هبة الله بن طير فقرأ عليه ست روايات، وإلى أبي منصور بن خيرون أبي بكر خطيب الموصل وأبي الفضل بن المهتدي بالله، فقرأ عليهم بالروايات الكثيرة، وسمع من ابن الطير وقاضي المارستان وأبي منصور والقزاز، وخلق، وأتقن العربية على جماعة، وقال الشعر الجيد، ونال الجاه الوفير، فإن الملك المعظم كان مديماً للاشتغال عليه، وكان ينزل من القلعة، وتوفي في سادس شوال سنة ٦١٢ هـ. يقول ابن العماد: «ونزل الناس بموته درجة في القراءات وفي الحديث، لأنه آخر من سمع من القاضي أبي بكر، والقاضي أبو بكر آخر من سمع من أبي محمد الجوهري، والجوهري آخر من روي عن القطيعي آخر من روي عن الكريمي وجماعة»[٣٠]. وقد صدق ابن العماد فيما قال، فحين يموت عالم من العلماء، أو شيخ من الشيوخ، نفقد جزءاً من العلم، ويضيع مصدر من مصادره. فالعلماء هم ذخيرة الأمة، وهم مصدر الإشعاع المستنير الذي ينقل العلم من جيل إلى جيل.

ومعنى أن الدخوار يتتلمذ على تاج الدين الكندي النحوي اللغوي، فإن هذا يشير إلى طبيعة التكوين العلمي الذي تلقاه منذ نشأته؛ إذ سيكون النحو واللغة بصفة أعم من بين شواغله الأساسية حين يلقن طلابه دروس الطب، فاللغة الدقيقة خاصة في مجال التأليف الطبي تشكل جزءاً معرفياً مهماً، لأن اللغوي دائماً يركز على الدقة في المصطلح من حيث الصياغة والدلالة. وهذا ما نراه الآن حين يستخدم الأطباء في عصرنا هذا مصطلحاً معيناً، فهم

يريدون به معنى محدداً بالذات دون غيره، يفهمه الأطباء في أي مكان، وهذا البعد في حد ذاته يشكل قوام البنية المعرفية في مجال دراسة علم الطب.

٢ ــ رضي الدين الرحبي (٥٣٤ ـ ٦٣١ هـ):

هو الحكيم الإمام رضي الدين أبو الحجاج يوسف بن حيدرة ابن الحسن الرحبي، من الأكابر في صناعة الطب، والمتعينين من أهلها. ويعدّ رضي الدين الرحبي «شيخ الطب بالشام وأحد من انتهت إليه معرفة الفن، قدم دمشق مع أبيه حيدرة الكحال في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، ولازم الاشتغال على المهذب بن النقاش فنوه باسمه ونبه على علمه»[٣١]. وكان رضي الدين قد أقام بنصيبين بعض الوقت، وتوجه بعدها إلى بغداد حيث اشتغل فيها بصناعة الطب وفيها عرف قدره، ثم رحل إلى مصر فالتقى بابن جميع المصري وانتفع به، وأخيراً دخل دمشق المحروسة أيام نور الدين محمود بن زنكي، وبقي بها إلى أن قضي.

وبعد أن أتقن رضي الدين الرحبي صناعة الطب اجتمع في مجلسه التلاميذ من كل صوب، فنهلوا من فيض علمه، وغزير معرفته، ونبغ منهم جماعة، وأقرءوا لغيرهم وصاروا من المشايخ المذكورين في صناعة الطب، يقول ابن أبي أصيبعة: «ولو اعتبر أحد جمهور الأطباء بالشام لوجد إما أن يكون منهم من قرأ على الرحبي، أو من قرأ على من قرأ عليه»[٣٢]. وكان الدخوار من أجلّ تلامذته فقد درس عليه ولازمه قبل أن يلازم ابن المطران[٣٣].

ويروى ابن أبي أصيبعة أن الشيخ رضي الدين الرحبي قد أخبره في أخريات حياته أن الذين تعلموا عليه اشتهروا في صناعة الطب، ونفعوا الناس كثيراً. ويبدو من رواية ابن أبي أصيبعة أن كل التلاميذ الذين اشتغلوا على الشيخ رضي الدين الرحبي من المسلمين فيما عدا عمران الإسرائيلي

وإبراهيم بن خلف السامري. يقول ابن أبي أصيبعة: «وقال لي إنه لم يقرئ في سائر عمره من أهل الذمة سوى اثنين لا غير، أحدهما الحكيم عمران الإسرائيلي والآخر إبراهيم بن خلف السامري بعد أن أثقلا عليه بكل طريق وتشفعا عنده بجهات لا يمكن ردها. وكل منهم نبغ وصار طبيباً فاضلاً»(٣٤).

ومما تذكره كتب التأريخ لحياة الأطباء أن رضي الدين الرحبي كان يحافظ على صحته أبلغ المحافظة، ويعتني بغذائه ويراعى تناوله عند الحاجة إليه فقط، فقد ذكر القفطي(٣٥) أنه كان يقتني أجود الطباخات ويتقدم إليها بأحكام ما يغلب على ظنه الانتفاع باستعماله في نهاره، ذلك بما باشره من نفسه، وما غلب عليه من الأخلاط في يومه، فإذا أنجزته وأعلمته بذلك طلب من يؤاكله من مؤانسيه. فإذا حضر منهم استأذنته في إحضار الطعام فيقول لها أخريه فإن الشهوة لم تصدق بعد فتؤخره إلى أن يستدعيه. ويقول: أعجلي فتأتيه به ويتناول منه، فقال له بعض أصحابه يوماً، ما المراد بهذا؟ فقال: الأكل مع الشهوة هو المندوب إليه لحفظ الصحة فإن الأعضاء إذا احتاجت إلى تعويض ما تحلل منها استدعت ذلك من المعدة فتستدعيه المعدة من خارج. فقال له: وما ثمرة هذا؟ قال: أن يعيش الإنسان العمر الطبيعي. فقال له: إنك قد بلغت من السن ما لم يبق بينك وبين العمر الطبيعي إلا القليل، فأي الحاجة إلى هذا التكلف؟ فقال له: لأبقى ذلك القليل فوق الأرض أستنشق الهواء وأجرع الماء، ولا أكون بسوء التدبير.

وقد بلغ من محافظته على صحته أنه كان لا يحب صعود السلم لمعاودة أحد، فقد وصف السلم بأنه (منشار العمر)، وربما يتفق معه في هذا علم الطب الحديث.

أهم مؤلفاته:

١ ــ تهذيب شرح ابن الطيب لكتاب فصول أبقراط.

٢ ــ اختصار كتاب المسائل لحنين، ولم يكمله على ما يذكر ابن أبـي أصيبعة.

٣ ــ فخر الدين المارديني (ت ٥٩٤ هـ):

هو من أهم أساتذة مهذب الدين، وهو أوحد زمانه وعلامة وقته في العلوم الحكمية، أتقن صناعة الطب، وتفنن في العربية.

وفخر الدين المارديني علم من أعلام مدرسة أمين الدولة ابن التلميذ، وهو تلميذه النجيب. قرأ عليه كتاب القانون لابن سينا، وأقرأ أستاذه أمين الدولة ابن التلميذ صناعة المنطق، «ومما قرأ عليه في ذلك كتاب المختصر الأوسط للجرجاني لابن سينا»[٣٦].

وبعد أن أتقن فخر الدين المارديني صناعة الطب وأحكم فصولها على أستاذه، توجه إلى دمشق عام ٥٨٧ هـ وأسس بها مجلساً لإقراء صناعة الطب وتدريسها، وكان الدخوار من جملة من اشتغل عليه ولازمه مدة مقامه بدمشق، فقرأ عليه بعض كتاب القانون لابن سينا وصححه معه. ولم يزل الشيخ مقيماً بدمشق حتى آخر شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ولما عزم على الرحيل، عزَّ على مهذب الدين أن يرحل أستاذه وهو بعد لم ينهل من فيض علمه، وغزير معرفته؛ ولم يكن قد أتم قراءة كتاب القانون عليه؛ فسأله البقاء معتقداً أن الأمر يتعلق بتكاليف الحياة ومتطلباتها، وعرض عليه أن يدفع له نفقته، لكن فطنة العالم كانت فوق الحاجة، فقال له قوله المأثور: العلم لا يباع أصلاً، لأن من كان معي فإنني أشغله أين كنت[٣٧].

ورحل فخر الدين المارديني إلى آمد، وكعادة أهل العلم والعلماء الأفاضل في ذلك الزمان وقف كتبه على رواد العلم وطلبته، وهذه الكتب من

أجود الكتب وهي نسخه التي كان قد قرأ أكثرها على مشايخه وحررها، وقد بالغ في تصحيحها وإتقانها[٣٨].

ولم يخل مجلس العلم الذي كان يعقده الشيخ فخر الدين المارديني من أقطاب العصر، فقد تعلم عليه سديد الدين ابن رقيقة وفخر الدين ابن الساعاتي وشهاب الدين السهروردي.

٤ ــ موفق الدين ابن المطران:

علامة العصر وأوحد العلماء. درس النحو والأدب واللغة على شيخ مشايخ عصره تاج الدين الكندي، فكان متفوقاً، وتلقى الطب على أبيه، وسافر إلى بلاد الروم، ثم ارتحل إلى العراق فاشتغل على أمين الدولة ابن التلميذ وقرأ عليه كثيراً من الكتب الطبية، ثم قفل راجعاً إلى دمشق. كما اشتغل بالطب على مهذب الدين ابن النقاش. وبعد أن تميز في الصناعة اتجه إليه الأتباع، وقصد مجلسه كل محب للعلم وكان من بين أهم تلامذته مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار.

وما أن ذاع صيته واشتهر اسمه، حتى قربه صلاح الدين، وأصبح طبيبه الخاص، ومع أنه كان يزهو بنفسه دائماً فإن صلاح الدين كان «يحترمه ويبجله لما قد تحققه من علمه؛ وأسلم ابن المطران في أيام صلاح الدين»[٣٩]، فزوجه إحدى حظايا داره واسمها جوزة.

ويذكر ابن أبي أصيبعة أن أستاذه الدخوار حدثه بأن صاحب حمص كان قد استدعى ابن المطران فتوجه إليه والدخوار بصحبته، وبينما هما في الطريق إذا برجل مجذوم يطلع عليه في الطريق، وقد قوي به المرض وتغيرت خلقته، وتشوهت صورته، فاستوصف منه ما يتناوله وما يتداوى به، فبقي كالمتبرم من رؤيته، وقال له: كُل لحوم الأفاعي. فعاوده في المسألة فقال: كل لحوم الأفاعي فإنك تبرأ.

ومضى الرجلان إلى حمص، وفي طريق العودة إذ بشاب حسن الصورة، كامل الصحة يمد يده ويسلم عليهما، ولم يعرفاه. فقال له ابن المطران: من أنت؟ فعرفه بنفسه وبمرضه، وبما وصفه له وأن علاجه قد جاء بخير نتيجة، فتعجبا من ذلك.

وكانت لموفق الدين بن المطران همة عالية في تحصيل الكتب، حتى أنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه. ويذكر ابن أبي أصيبعة[٤٠] أنه كانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها. وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له، وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة، وكان خطه منسوباً. وكتب ابن المطران أيضاً بخطه كتباً كثيرة، وقد رأى ابن أبي أصيبعة عدة منها وهي في نهاية حسن الخط والصحة والإعراب. وكان كثير المطالعة للكتب لا يفتر من ذلك في أكثر أوقاته. وأكثر الكتب التي كانت عنده وجدت، وقد صححها وأتقن تحريرها، وعليها خطه بذلك. ولما مات بيعت كتبه؛ ويذكر ابن أبي أصيبعة أن عمران الإسرائيلي حدثه: أنه حضر بيع كتب ابن المطران ووجدهم وقد أخرجوا من هذه الأجزاء الصغار ألوفاً كثيرة، أكثرها بخط ابن الجمالة. وأن القاضي الفاضل بعث يستعرضها فبعثوا إليه بملء خزانة منها وجدت كذلك فنظر فيها، ثم ردها فبلغت في المناداة ثلاثة آلاف درهم واشترى الحكيم عمران أكثرها.

أهم مؤلفاته:

١ ــ كتاب بستان الأطباء وروضة الألباء.

٢ ــ المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية.

٣ ــ المقالة النجمية في التدابير الصحية.

٤ ــ اختصار كتاب الأنوار للكسروانيين.

٥ ــ لغز في الحكمة.

٦ ــ كتاب على مذهب دعوة الأطباء.
٧ ــ كتاب الأدوية المفردة (لم يتم).
٨ ــ كتاب آداب طب الملوك.

هكذا كان التعليم في مجالس هؤلاء العلماء والأطباء الأفاضل الذين أثروا العلم بأفكارهم وتعاليمهم.

ومن الطبيعي أن مجالس العلماء، خاصة مجالس التعليم الطبي وقتئذ كانت تتميز بسمات وخصائص معينة، بحيث أصبحت علامة للعصر بأسره.

وفي كتاب «عيون الأنباء» حدثنا ابن أبي أصيبعة عن المجالس العلمية المهمة، خاصة مجالس التعليم الطبي في عصر الدخوار، وأخبرنا ما الذي كان يتم فيها.

والجدير بالملاحظة أن المجالس العلمية كانت متواصلة الوجود عبر الفترات التاريخية المختلفة، فلم يكن هذا هو المجلس العلمي الوحيد في ذلك العصر، وهذا ما يجعلنا نفضل أن نلقي نظرة تاريخية على مجالس التعليم الطبي في عصر الدخوار، وما قبله، حتى نعرف أهمية المجلس العلمي الذي كان يعقده هذا الطبيب العالم، وما هي الإسهامات العلمية الرائدة التي قدمها العلماء من خلال مجالس التعليم الطبي على مر الأزمان؟ وما هي المعالم الحقيقية لمجلس العلم الذي كان يعقده الدخوار، والذي ظل علامة بارزة على النضج العلمي وقتئذ، وتوارثته مدرسته فيما بعد لأكثر من قرنين من الزمان؟.

إن التوجه لدراسة بنية المدارس العلمية يطلعنا مباشرة على خاصية التواصل الإبستمولوجي بين الأجيال العلمية. ويكشف لنا طبيعة التفكير ذاته وانسيابه في إطار العصر، هذا من جانب، كما يبيِّن لنا، ويفسر أيضاً، طبيعة القيم الأخلاقية، والتقاليد العلمية التي تنتقل من جيل إلى جيل، وأثرها في بنية المعرفة العلمية، ومدى تأثيرها في عقلية العصر، لأنها بمثابة الحامل

الطبيعي لنتاج البيئة معرفياً وسسيولوجياً وسيكولوجياً، هذا من جانب آخر. ولذا فإن دراسة بنية المدارس العلمية وطبيعتها المباشرة يكشف التصورات العلمية التي يمكن أن تكون لدى جيل من الأجيال والتغيرات التي طرأت عليها، وفي أي مرحلة حدث التغير المعرفي.

الفصل الثالث

مجالس التعليم الطبي

انتشرت مجالس التعليم داخل ربوع العالم الإسلامي بصورة منظمة، حرصت عليها الدولة أحياناً، وحرص عليها العلماء في أغلب الحالات، وهذا دأبهم دائماً، إذ يُعْرَف العالِم بمجلسه وتلامذته ومريديه، وبالأثر الذي يتركه في الأجيال التالية، فكل واحد من تلامذته يدل دائماً وأبداً عليه. ولذا فقد حرص العلماء أبلغ الحرص على تلقين الطلاب في مجلس له طابع معين يختلف من أستاذ إلى آخر.

وقد حرص ابن أبـي أصيبعة المؤرخ الذي سطر كل ما يتعلق بالعلم والعلماء في كتابه «عيون الأنباء» على تتبع هذه النقطة الهامة، وذكر خصائص كثيرة لمجالس العلم عند العلماء. فهذا أمين الدولة ابن التلميذ الذي كان خبيراً باللسان السرياني والفارسي ومتبحراً في اللغة العربية[٤١]، وكان خطه في غاية الحسن والصحة، «كان يحضر مجلسه في صناعة الطب خلق كثير يقرءون عليه، وكان اثنان من النحاة يلازمان مجلسه ولهما منه الإنعام والافتقاد، فكان من يجده من المشتغلين عليه يلحن كثيراً في قراءته، أو هو ألكن، يترك أحد ذينك النحويين يقرأ عنه وهو يسمع[٤٢]، ثم بعد أن يجيزه النحوي كان يمتحنه[٤٣]، وربما كان مجلس أمين الدولة ابن التلميذ من أكبر مجالس شيوخ العلماء قاطبة في ذلك الوقت، وقد ذكر ابن أبـي أصيبعة نقلاً عن موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي أنه قال: «ودخل إليه رجل منزف يعرق دماً في زمن الصيف فسأل تلاميذه وكانوا قدر خمسين نفساً فلم يعرفوا المرض»[٤٤].

إن أهم ما يظهرنا عليه كلام ابن أبـي أصيبعة هذا، أن ابن التلميذ كان يركز على الجانب اللغوي والدليل على ذلك استعانته بالنحاة في مجلسه

لتصحيح لسان التلاميذ وبيان جوانب المصطلح لهم، ومعناه العربي. فالعربية في ذلك الوقت هي لغة العلم، ومن أراد أن يتقن العلم الذي يدرسه عليه أن يتقن لغته. وفي إطار الجانب اللغوي أيضاً نجد أن ابن التلميذ كان يعرف لغات أخرى بجانب اللغة العربية التي هي لغة العلم، وهذه اللغات لا شك تسهل عملية اطلاع العالم على المعرفة والعلوم المكتوبة بهذه اللغات، كما تجعل مهمة العالم أيسر إذا قصد مجلسه أحد المتحدثين بواحدة من هذه اللغات.

ولا يخفى علينا أن عرض ابن التلميذ الحالة المرضية على تلامذته، إنما يستدعي إلى عقولنا ما يحدث في عصرنا من أن الأطباء يعرضون على طلابهم الحالات المرضية ويطلبون منهم تشخيصها، وهذا الدرس يكشف عن اتصال النظر بالتدريب العملي المباشر، فالمعرفة لا بد أن تكون قابلة للتطبيق، وتلك سمة ميزت عمل الأطباء العرب على مر الزمان.

وكانت مجالس العلم أحياناً لدى الأطباء تعقد بالبيمارستانات، فهذا زاهد العلماء الذي أسس البيمارستان الفارقي، كان يتخذ مجلسه في البيمارستان، ليرد ويجيب على تساؤلات تلامذته(٤٥).

وأغلب مجالس التعليم اتسمت بالميل إلى المناظرة والمناقشة، فقد اتسم مجلس سيف الدين الآمدي بهذا الطابع، فجعل الناس يتعجبون من «حسن كلامه في المناظرة والبحث»(٤٦) كذلك كان مجلس شمس الدين ابن اللبودي الذي «صار قوياً في المناظرة، جيداً في الجدل»(٤٧).

إن هذا يطلعنا على أن نمو المعرفة في مجال دراسة علم من العلوم إنما يكون من خلال المناقشة والرأي بين المشتغلين بالعلم. إذ من الملاحظ في مجال الطب أن الأطباء يتعرضون دائماً لمشكلات قد تكون جديدة عليهم، أو لحالات لم تعرض عليهم من قبل. وسبيل الأطباء في تشخيص هذه الحالات

وعلاجها إنما يكون من خلال الندوات Symposiums أو المؤتمرات Conferences التي تعقد لبحث مثل هذه الحالات ودراستها، والاتفاق على طريقة علاجها. وتشخيص الحالات وعلاجها يحتاج في مثل هذه الحالات إلى مقارعة الدليل بالدليل والحجة بالحجة، حتى يحدث الإجماع والاتفاق على أمر محدد، خاصة أن الأمر يتصل بحياة الإنسان التي يجب الحفاظ عليها. لذا كانت المناظرة بعداً جديداً ميز الفكر العلمي في تلك الآونة، وكشف في الوقت نفسه عن تمرس الأطباء العرب بعلم الطب وفن المناظرة.

وفي مجالس العلم كثيراً ما كان العالم يؤلف لتلامذته الذين تخرجوا عليه، وأصبحوا أساتذة يباشرون تدريس العلم. ولكن الكتب المؤلفة في هذه الحالة لم يكن مقصوداً منها التعليم والتلقين، ولكن المقصود منها أن تجعل المتخرج يتفقه في العلم ويتبحر. يقول ابن أبي أصيبعة الذي حفظ لنا ما قاله أحمد بن الأشعث عن كتاب الأدوية المفردة الذي ألفه، يقول: «سألني أحمد بن محمد البلدي أن أكتب هذا الكتاب، وقديماً كان سألني محمد بن ثواب فتكلمت في هذا الكتاب بحسب طبقتهما وكتبته إليهما، وبدأت به في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وهما في طبقة من تجاوز تعلم الطب، ودخلا في جملة من يتفقه فيما علم من هذه الصناعة ويفرع ويقيس ويستخرج، وإلى من في طبقتهما من تلامذتي ومن ائتم بكتبي ـ فإن من أراد قراءة كتابي هذا وكان قديماً تجاوز هو التعليم إلى حد التفقه، وأن يفرع على ما ذكرته ويشيد»(٤٨). وهذا يشير إلى أهمية الكتاب التعليمي الأكاديمي الذي يعرض الخبرة، والحالات المدروسة في علم الطب. فالكتاب حامل إبستمولوجي ينقل الفكر من جيل إلى جيل.

كذلك فإن التعليم كانت له خصائص وسمات مميزة عند الأطباء العرب، وربما كان أبو بكر الرازي إمام الأطباء في وقته من أعظم الأطباء الذين حفظوا لنا في مؤلفاتهم التعاليم التي ينبغي على المتعلم أن يعرفها جيداً، ويجب على

المعلم أن يبثها في نفس المتعلم.

لم تكن تعاليم الرازي أمراً نظرياً مجرداً، وإنما كانت من واقع الخبرة والممارسة، فهو «طبيب سريري لا يُبارَى في هذا الميدان، كما هو أستاذ قدير في تعليم الطب، والكتابة في أصول تعليمه. وكتابه «المرشد أو الفصول» خير دليل على ذلك. وكان يزدحم الطلاب في حلقة دروسه بحسب تواريخ التحاقهم بتلك الحلقات، ويعرض أمامهم المرضى ليستجوبوهم عن سبب شكاواهم، وبالتالي لتشخيص أمراضهم، فإذا عجزوا عن معرفة أمراضهم وطريقة علاجها دخل فيما بينهم ليقول في ذلك كلمته الفصل»[٤٩]

هذا النص يشير إلى أشياء كثيرة في مجال التعليم الطبي عند هؤلاء الأساتذة وفي مجالسهم سواء أكانت داخل البيمارستان أم خارجه. فحلقة التدريس عند الرازي كانت على نوعين: حلقة للتدريس النظري وأخرى للتدريس العملي[٥٠]. أما التدريس النظري فيتم بأسلوب نقاش علمي يجمع الطلبة على ثلاث حلقات أقربهم إليه أنضجهم علماً وخبرة، ويليه الصنف الثاني ممن هم أقل خبرة، ثم الصنف الأخير الذي يضم المستجدين فيقرأ عليهم ويفسر لهم ويناقشهم ويصغي إلى حوارهم مجيباً على أسئلتهم، وكلما توسم نباهة بأحدهم قدمه إلى حلقة أقرب، وهذه الحلقة يبقى فيها المتعلم مدة ثلاث سنوات، أي أنه يمضي سنة في كل حلقة. وخلال هذه الفترة يدرس علم التشريح، والفيزيولوجيا أو خصائص الأعضاء والباثولوجيا.

وأما الدروس العلمية فكانت مثل جلساته النظرية تتم على شكل حلقات من طلابه حول سرير المريض في المستشفيات شارحاً لهم الحالات المرضية النادرة واحدة بعد الأخرى، وهذا يعني أن المريض عند الرازي استخدم ككتاب يقرأ يومياً وباستمرار للوقوف على الأعراض التي تعتريه[٥١].

والأهم من كل هذا أن الأستاذ العالم الذي يلقي على طلابه الدروس في هذه المجالس كان يشرح لطلابه كل حالة يفحصها ويسجل أسئلته

ومشاهداته في صفحة خاصة مبتدئاً باستجواب المريض والطلاب من حوله، سائلاً عن اسمه وعمره وبلده ورحلاته وعما ألـمّ به، واليوم الذي شعر فيه بالمرض، وموضع الألم، والأعراض التي رافقته بالترتيب والتسلسل الزمني لها، مؤكداً أن المريض خير راوية لشرح أبعاد المرض الذي يعانيه شخصياً، كما كان يسأل المريض عن عائلته وأفرادها، وهل شعروا بالأدوار التـي يكابدها هو.

من أجل كل هذا كان الرازي يمتحن الأطباء والطلاب المتخرجين عليه، فيسألهم أولاً في تشريح الجسم، فإذا فشلوا في الإجابة فيه، فلا يسألهم في الطب السريري؛ لأن فشلهم في هذا الموضوع لا يشفع لهم في النجاح حتى لو نجحوا في العلوم السريرية[٥٢].

كذلك كان مجلس مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار في النصف الثاني من القرن السادس الهجري والربع الأول من القرن السابع الهجري، فقد كان الطلاب يجتمعون حوله في البيمارستان حين كان يتفقد المرضى فيعلمهم ويشرح لهم الحالة المرضية التي أمامه. وابن أبـي أصيبعة الذي كان من بين طلابه حين كان يتفقد البيمارستان والمرضى يقول: «ورأيته يوماً في قاعة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه فقالوا: عنده ضعف ليعطى مرقة الفروج للتقوية، فنظر إليه وقال: إن كلامه ونظر عينيه يقتضي الضعف، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبض يده اليسرى، فوجدناه قوياً. فقال: انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت التي تجس والأخرى طلعت في أعلى الزند إلى ناحية الأصابع فوجدناه حقاً. ثم قال: إن من الناس، وهو نادر، من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف، وإنما يكون جسم لتلك الشعبة التي هي نصف العرق فيعتقدون أن النبض ضعيف»[٥٣]. هذا عن الجانب العلمي

عند الدخوار الذي ورثه عن أسلافه الأطباء الذين أرسوا قواعد مهنة الطب في العالم الإسلامي كما هو عند الرازي، ولا عجب في ذلك فقد درس مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار ما كتبه الرازي وفهمه جيداً، وقد استوعب كل ما ذكره الرازي في كتاب الحاوي من تعليمات ووصف للحالات الإكلينيكية، ووضع مختصراً للحاوي على ما تخبرنا الكتابات التي بين أيدينا.

أما إذا فرغ من البيمارستان، فيخصص وقته للنسخ والتحصيل والدرس والقراءة أولاً، ثم يفرغ بعد ذلك لطلابه فيأذن لهم «فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه إياه بقدر طاقته ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير»[٥٤]. فقد كانت تلك طريقته، وهذا ما فعله على سبيل المثال في شرحه لتقدمة المعرفة الذي حرر معناه ومبناه، وجعله واضحاً سهلاً أمام الأطباء ليقبلوا عليه.

وكانت طريقة الدخوار في الدرس النظري ذات طابع مميز، إذ كان يدقق في كل ما بين يديه، ويحاول بقدر الإمكان أن يخرج نصاً خالياً من الأخطاء، فكان «لا يقرئ أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرؤه ذلك التلميذ، ينظر فيه ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمر بإصلاحه»[٥٥]. كما كان الدخوار حريصاً كل الحرص على جودة النسخة ودقتها، يقول ابن أبي أصيبعة: «وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه وكان أبداً لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري»[٥٦]. فهذه عدة العالم دائماً الذي يريد لبحثه أن يأتي على درجة عالية من الجودة. وبعد أن كان الدخوار يخلو من مجلسه وبعد أن تنفض الجماعة، يعود هو إلى نفسه

فيأكل شيئاً ثم يشرع بقية نهاره في الحفظ والدرس والمطالعة يسهر أكثر ليله في الاشتغال»[٥٧].

هكذا كان مجلس العلم عند الدخوار. وكما كان مجلسه في داره، حيث تعلم عليه طلاب وأطباء كثيرون، فقد أراد الدخوار للعلماء وطلاب العلم من بعده أن يحفظوا اسمه ويخلدوا ذكراه، فحفظ لهم داره ـ كما ذكرنا من قبل ـ مدرسة لتعلم الطب، كانت من أشهر مدارس دمشق المحروسة، وعرفت في تاريخ الطب الإسلامي باسم المدرسة الدخوارية التي طبقت شهرتها الآفاق في القرن السابع الهجري، وانتسب إليها وتخرج منها مشاهير الأطباء ينشرون ضياء العلم والمعرفة في ربوع العالم، ويقدمون للبشرية خلاصة علمهم ودرسهم.

وقد استطاع الدخوار أن يبث في تلامذته التعاليم العلمية الصحيحة، مما كان تعلمه في مجلس أستاذه تاج الدين الكندي، وهذا ما ظهر بوضوح في اهتمامه، إلى جانب الطب، بسند الرواية، فكان أن قدم لنا ابن أبي أصيبعة الكثير مما يدل على هذه الخاصية التي يتمتع بها العالم.

والواقع أن ابن أبي أصيبعة حفظ لنا كنزاً بالغ الأهمية حين دوّن كتابه «عيون الأنباء» فهو في هذا المؤلف يتعرض بصورة مباشرة للأطباء لا التاريخ، لكنه في الوقت نفسه يطلعنا على قيمة الاهتمام بالتاريخ، فلم يكن مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، مجرد علم من أعلام الطب، في الفترة التي عاشها ابن أبي أصيبعة، ولم يكن مجرد شيخ تعلم عليه هذا المؤرخ الطبيب، أو مؤسس مدرسة ذاع صيتها في العالم الإسلامي، وأصبحت أكاديمية علمية بحق يتجه إليها طلاب العلم والمعرفة من كل صوب، وإنما كان فضلاً عن كل هذا، مؤرخاً لأحقاب طبية متتالية، يروي لرواد مجلسه ولتلميذه ابن أبي أصيبعة ما حفظه في ذاكرته، وما سمعه عن شيوخه، من علم الأطباء السابقين عليه ونظرهم. ولا غرابة في هذا، فالدخوار الطبيب العالم، سليل تاج الدين الكندي، تلقى عليه، وعرف كيف يتحرى صدق

الرواية ويتتبع أصلها، فتلك سمة العالم الحق الذي ينسب الكلام لقائله، لا أن يدعي لنفسه العلم والمعرفة بالإطلاق ويحط من قدر الآخرين؛ كما يفعل بعض الجهال في عصرنا هذا حين يدعى لنفسه معرفة كل شيء، ولا ينسب الفضل لأهله، فيتملكه الغرور، ويفسد على الآخرين متعة الحقيقة، ويضيع على نفسه فرصة وصفه بالصدق.

ولنا فيما يرويه ابن أبي أصيبعة أدلة كثيرة، توضح عقلية الدخوار الطبيب العالم الذي ارتبطت عنده الفضيلة الفكرية بالفضيلة الأخلاقية، فحدث بكل صدق وأمانة.

حين أراد ابن أبي أصيبعة أن يعرف بعض جوانب شخصية أمين الدولة ابن التلميذ وحياته، وسأل الدخوار، فأجابه بما سمعه من الروايات بسندها تماماً، وقد رواها ابن أبي أصيبعة كما سمعها من أستاذه يقول: «وحدثني الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، قال: حدثني الشيخ موفق الدين أسعد بن إلياس بن المطران، حدثني أبي، حدثني إسماعيل بن رشيد قال: حدثني أبو الفرج ابن توما وأبو الفرج المسيحي، قالا: كان الأجل أمين الدولة ابن التلميذ جالساً ونحن بين يديه إذ استأذنت عليه امرأة ومعها صبي صغير، فأدخلت عليه، وحين رآه بدرها فقال: إن صبيك هذا به حرقة البول، وهو يبول الرمل، فقالت: نعم، قال: فيستعمل كذا وكذا، وانصرفت. قالا: فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك، وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقاً. فقال: حين دخل رأيته يولع بإحليله ويحكه، ووجدت أنامل يديه متشققة قاحلة، فعلمت أن الحكة لأجل الرمل، وأن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحركة ربما لامست أنامله عند ولوعه بالقضيب فتقحل وتشقق، فحكمت بذلك وكان موافقاً». وهكذا كان الدخوار حريصاً في كل مرة يروي فيها لتلميذه ابن أبي أصيبعة، أن يذكر ما سمعه تماماً، ومن الذي حدثه، وعن من. فصدق الرواية يستمد من صدق

المحدث بها، وقد فهم الدخوار هذا المعنى تماماً حين قصد مجلس تاج الدين الكندي لينهل من علمه وفضله، وليورث هذا لتلامذته أيضاً، وهو ما نجده عند ابن أبـي أصيبعة الذي حرص في أكثر صفحات مؤلفه «عيون الأنباء» أن يحتفظ بتلك الفضيلة التي تعلمها من أساتذته إبان فترة النشأة والتكوين.

أشهر مجالس التعليم في عصر الدخوار
الشيـــوخ والطـــلاب

تاج الدين أبو اليمن الكندي	البغـدادي
كمال الدين الحمصي (٦١٢ هـ)	شرف الدين الرحبـي (٦٦٧ هـ)
موفق الدين عبداللطيف البغدادي (٦٢٩ هـ)	رشيد الدين الصوري (٦٣٩ هـ)
مهذب الدين يوسف بـن أبـي سعيد (٦٢٤ هـ)	
مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار (٦٢٨ هـ)	
فخر الدين ابن الساعاتي	
ابن المطران	

مهذب الدين بن النقاش (٥٧٤ هـ)	ابن المطران
رضي الدين الرحبي	موفق الدين عبدالعزيز (٦٠٤ هـ)
مهذب الدين يوسف بن أبـي سعيد	الدخوار
ابن المطران	
جمال الدين ابن أبـي الحوافر (٥٩٥ هـ)	
مهذب الدين ابن الحاجب	

رضي الدين الرحبي

الدخوار

عمران الإسرائيلي (٦٣٧) هـ

إبراهيم بن خلف

شرف الرحبي

كمال الدين الحمصي

رشيد الدين علي بن خليفة

فخر الدين ابن الساعاتي

جمال الدين ابن أبي الحوافر

الدخوار

المظفر بدر الدين ابن قاضي بعلبك

شمس الدين الكُلِيّ

موفق الدين عبد السلام

نجم الدين ابن المنفاخ

زين الدين الحافظي

الصاحب نجم الدين ابن اللبودي

رشيد الدين أبو حليقة

عز الدين ابن السويدي

رشيد الدين أبو سعيد

ابن أبي أصيبعة

ابن النفيس

فخر الدين المارديني

الدخوار

سديد الدين بن رقيقة (٦٣٥ هـ)

فخر الدين بن الساعاتي

شهاب الدين السهروردي.

لم يقتصر الأمر على المجالس العلمية فحسب، وإنما كان العالم، في كثير من الأحيان، يقضي جزءاً كبيراً من وقته في النسخ، وقد حافظ العلماء دوماً على هذا الأمر فاعتنوا بالكتابة والخط والتدقيق. ويمكن لنا إذا تتبعنا البينات التاريخية أن نقف على حقيقة اهتمام العلماء الأوائل بالنسخ والخط، لنعرف كيف أن الدخوار لم يفارق سُنَّةَ أهل العصر، ولم يخرج على ما كان مألوفاً للعلماء في وقته.

يُعد كتاب «عيون الأنباء» كما سبق أن ذكرنا، ثروة تاريخية وعلمية قيمة، فقد آثر صاحبه ومؤلفه الطبيب المؤرخ ابن أبي أصيبعة أن يحفظ لنا فيه كل ما أتيح له من معلومات عن العلماء والكتابات التي وقعت له، وكانت خواطره في هذا الصدد تضفي على ما يكتبه رونقاً وجاذبية خاصة.

لم يغب عن بال صاحب «عيون الأنباء» أن يقدم لنا وصفاً متكاملاً لكل ما كان يقرؤه، ونسبة الخط وصاحبه، ولم يغب عنه أيضاً أن يصف خط الأساتذة الذين تعلم عليهم، ومدى اهتمام كل منهم بهذا الجانب، وها هو ذا يصف لنا هذا الأمر أبلغ وصف في أجلى عبارات على امتداد صفحات مؤلفه.

والدخوار العالم الطبيب كان حريصاً على إجادة الخط والكتابة وإتقانهما وهو في هذا يباري كافة علماء العصر، والأقدمين أيضاً. فقد كان من المألوف لدى من سبقه من العلماء أن يوجه عنايته «للنسخ والكتابة»، فهذا الاهتمام يرفع من قدر العالم بين أقرانه، ولذا كان الحرص على التدوين والنسخ سمة غالبة على علماء الزمان الماضي. وقد وصف لنا القفطي في «تاريخ الحكماء» أكثر من مثال على غلبة تلك السمة، وتتبعها أيضاً في بعض الأحيان لدى علماء من الطراز الأول مثل أبي بكر الرازي الطبيب العالم، فيذكر أنه «لم يكن يفارق النسخ إما يسود أو يبيض»(٥٨). كما حرص القفطي أيضاً على أن يصف لنا في بعض النصوص التي حفظها مؤلفه القيم نوع الخط وصفته، مثال ذلك أنه حين تعرض لسيرة ابن رضوان ذكر: «وكان ابن رضوان يكتب خطاً متوسطاً من خطوط الحكماء جالساً مبين الحروف، رأيت بخطه مقالة الحسن بن الحسن بن الهيثم في ضوء القمر قد شكله تشكيلاً حسناً صحيحاً يدل على تبحره في هذا الشأن، وكتب في آخره: وكتبه علي بن رضوان بن جعفر الطبيب لنفسه»(٥٩). وهذا يعني أن ابن رضوان كان يكتب لآخرين، أو أنه كتب لبعض العلماء وهو بعد حديث

السن، ولا غضاضة في هذا، فقد ذكر ابن أبـي أصيبعة في «عيون الأنباء» أن الدخوار وهو الطبيب العالم حين تتلمذ على «ابن المطران» ولازمه، نسخ له كتابه المعروف «بستان الأطباء»، وفي هذا الصدد يقول ابن أبـي أصيبعة: «ولموفق الدين بن المطران من الكتب: كتاب بستان الأطباء وروضة الألباء، غرضه فيه أن يكون جامعاً لكل ما يجده من ملح ونوادر وتعريفات مستحسنة مما طالعه أو سمعه من الشيوخ أو نسخه من الكتب الطبية، ولم يتم هذا الكتاب. والذي وجدته منه بخط شيخنا الحكيم مهذب الدين جزأين: الأول منهما قد قرأه على ابن المطران وعليه خطه، والجزء الثاني ذكر مهذب الدين فيه أن ابن المطران وافاه الأجل قبل قراءته له عليه»[٦٠].

ويحرص المؤرخ عادةً على أن يعقد بعض المقارنات بين خطوط العلماء، مما ينم عن اهتمام بهذا الجانب. وهذا ما يمكن أن نستنتجه من كلام القفطي الذي يقارن بين خط عيسى بن علي بن عيسى وخط ابن مقلة في نص يقول فيه: «ورأيت نسخة من السماع الطبيعي التي قرأها على يحيى بن عدي شرح يحيى النحوي وهي في غاية الجودة والحسن والتحقيق، وكانت له عليها حواشٍ حصلت بالمناظرة حالة القراءة وهي بخطه، وكان أشبه شيء بخط أبـي علي ابن مقلة في القوة والجريان والطريقة»[٦١].

هذا الاهتمام من جانب المؤرخين إنما يدل على عنايتهم البالغة بالشكل إلى جانب المضمون، وهو ما تحقق عند الدخوار. فهو إلى جانب كونه عالماً وطبيباً معالجاً، يصول ويجول في ميدان الطب الفسيح نجده أيضاً قد بذل قسطاً وافراً من العناية بالخط من خلال مواظبته على الاشتغال والنسخ «وكان خطه منسوباً، وكتب كتباً كثيرة بخطه»[٦٢]. وقد ذكر ابن أبـي أصيبعة أيضاً ما قرأه من كتبه الكثيرة بقوله: «وقد رأيت منها نحو مائة مجلد أو أكثر في الطب وغيره»[٦٣]. ويتفق هذا الذي يرويه ابن أبـي أصيبعة مع ما يذكره صاحب «فوات الوفيات» الذي اهتم بخط الدخوار أيضاً فذكر أنه «نسخ كتباً

كثيرة بخطه المنسوب، أكثر من مائة مجلد في الطب»[٦٤].

ومن خلال العناية بالخط فطن ابن أبـي أصيبعة إلى الارتباط الوثيق بين الخط واللغة العربية وإجادتها، وهذا ما يجعل لاهتمامه موضعاً. فنجده يذكر (أبا الخطاب) محمد بن محمد بن أبـي طالب، ويقول عن خطه: «ورأيت خطه على كتاب من تصنيفه قد قرئ عليـه، وهو كثير اللحن يدل على أنه لم يشتغل بشيء من العربية»[٦٥]. على حين أن «عز الدين ابن السويدي وهو من تلامذة الدخوار، وأجاد اللغة العربية كتب بخطه كتباً كثيرة جداً في الطب وغيره، فمنها خط منسوب علـى طريقة ابن البواب، ومنها خط يشابه مولد الكوفي، وكل واحد من خطيه فهو أبهى من الأنجم الزواهر، وأزهـى من فاخر الجواهر، وأحسـن من الرياض المونقة، وأنور من الشمس المشرقة. وحكى أنه كتب ثلاث نسخ من كتاب القانون لابن سينا»[٦٦].

من خلال كل هذا الاهتمام بالتعليم والقراءة والنسخ، استطاع مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار أن يشكل عقل وفكر جيل كامل من التلامذة والأتباع تعلموا عليه وقرأوا وصحح لهم، وعملوا تحت إشرافه العلمي والعملي في البيمارستانات.

الفصل الرابع

تلامذته

١ ـ نجم الدين ابن المنفاخ.
٢ ـ عز الدين ابن السويدي.
٣ ـ بدر الدين ابن قاضي بعلبك.
٤ ـ شمس الدين الكُلّي.
٥ ـ زين الدين الحافظي.
٦ ـ موفق الدين عبد السلام.
٧ ـ الصاحب نجم الدين ابن اللبودي.
٨ ـ رشيد الدين أبو حليقة.
٩ ـ رشيد الدين أبو سعيد.

يعدّ التلاميذ في أي فترة من الفترات التاريخية مؤشراً له دلالته على عقل الأستاذ وفكره، إذ أن الأستاذ الذي يشكل عقل تلامذته بصورة معينة إنما يريد أن ينقل تياراً فكرياً ومعرفياً معيناً إلى الأجيال التالية. فإذا عرف التلاميذ فضل الأستاذ، وفهموا جوانب فكره، ووقفوا على حقيقة رسالته، أمكنهم أن يحولوا خطاب الأستاذ الذي أثر فيهم وتأثروا به، إلى بيان عمل، وترجمة فعلية لفكر الأستاذ. فلا ينبغي للتلميذ أن يقف عند حد الانفعال بخطاب الأستاذ والتأثر به، ولكن لا بد من نقل هذا الخطاب من الانفعال إلى الفعل وهذا لا يتسنى إلا بدأب التلامذة، وحرصهم على التواصل المعرفي، وبذا يشكلون حلقة من حلقات النمو المعرفي الذي يمكن من خلاله توظيف الأفكار إبستمولوجياً، إذ ما قيمة الفكرة بدون توظيف؟ وما قيمة المعرفة بدون حامل؟ هذه هي القضية الرئيسية التي تواجهنا في تناول عملية التواصل والاتصال المعرفي بين الأجيال العلمية.

من خلال هذا السياق نحاول أن نتعرف على تلامذة الدخوار الذين شكلوا قوام مدرسته. وسوف يكون التقاء فكرنا مع تلامذة الدخوار من خلال مستويين: المستوى الأول: نستعرض فيه بعض الأعلام في هذه المدرسة بصورة سريعة تضيف لنا شيئاً عن إنجازاتهم دون كثير من التفاصيل. والمستوى الثاني: نحاول من خلاله أن نقدم نموذجين لأهم أعلام هذه الدراسة وهما: ابن النفيس وابن أبي أصيبعة. من خلال التركيز على بعض جوانب الإبداع عندهما، لنعرف كيف استمرت رسالة الأستاذ مع تلامذته، وكيف أصبح هؤلاء التلامذة فيما بعد مؤثرين ومنتجين معرفياً.

١ ـ نجم الدين ابن المنفاخ (٥٩٣ ـ ٦٥٢ هـ):

هو أبو العباس ابن أبي الفضل أسعد بن حلوان، وهو كما يقول ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء»: يعرف «بابن العالمة»[٦٧]، وكغيره من طلبة العلم في عصره قصد مجلس العلم الذي أرسى تقاليده الدخوار، فكان أحد طلابه النابهين سريع الخاطر، فصيح اللسان، له قدرة على الجدل والمناظرة يقول ابن أبي أصيبعة عنه: «حاد الذهن مفرط الذكاء، فصيح اللسان، كثير البراعة، لا يجاريه أحد في البحث، ولا يلحقه في الجدل، واشتغل على شيخنا الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بصناعة الطب حتى أتقنها»[٦٨]. ومن الطبيعي أن من يبرع في الجدل تكون له دراية بالمنطق وفنونه، وهذا ما توافر لنجم الدين الذي كان متميزاً في العلوم الحكمية، قوياً في المنطق، مليح التصنيف، جيد التأليف وبالإضافة إلى هذا يذكر ابن أبي أصيبعة أنه كان فاضلاً في العلوم الأدبية، مقرضاً للشعر «وله معرفة بالعود، حَسَن الخط»[٦٩].

ولعلو مكانته استوزره الملك المسعود صاحب آمد، لكنه سرعان ما «نقم عليه وأخذ جميع موجوده»[٧٠]. لكن الملك الأشرف ابن الملك المنصور صاحب حمص أحسن إليه في أخريات حياته، وقيل: إنه توفي في ذي القعدة، وقد سارت الشكوك حول موته فقيل: إنه توفي مسموماً[٧١].

أهـم مؤلفـاته:

١ ـ كتاب التوفيق في الجمع والتفريق «ذكر فيه الأمراض وما تتشابه فيه والتفرقة بين كل واحد منها والآخر».

٢ ـ كتاب هتك الأستار في تمويه الدخوار «تعاليق ما حصل له من التجارب وغيرها».

٣ ـ شرح أحاديث نبوية تتعلق بالطب.

٤ ـ كتاب المهملات في كتاب الكليات.

٥ ـ كتاب العلل والأعراض.

٦ ـ كتاب المدخل إلى الطب.

٧ ـ كتاب الإرشادات المرشدة في الأدوية المفردة.

٢ ـ عز الدين ابن السويدي (٦٠٠ ـ ٦٩٠ هـ):

هو الحكيم الأجلّ الأوحد العالم أبو إسحاق إبراهيم بن محمد. وابن أبـي أصيبعة يرفع نسبه إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه.

يقول ابن تغري بردي عنه في المنهل الصافي[٧٢]، كان فاضلاً أديباً لا سيما في الطب، وله مشاركة جيدة في فنون، وسمع من ابن ملاعب وأحمد بن عبد الله السلمي، وعلي بن عبد الوهاب أخي كريمة، وتفرد عنه، والحسين بن إبراهيم بن سلمة، وزين الأمناء ابن عساكر، وقرأ لولده البدر محمد علي مكي بن علان والرشيد العراقي، واستنسخ له الأجزاء، وقرأ المقامات سنة تسع عشرة على التقيّ خزعل النحوي وأخبره بها عن متوجهر عن المصنف، وقرأ كتباً في الأدب وفي النحو على ابن معط، وعلى النجيب يعقوب الكندي، وأخذ الطب عن الدخوار وغيره.

هذه السلسلة والنخبة الطيبة من العلماء جعلت ابن أبـي أصيبعة يوفيه حقه في عبارة موجزة يقول فيها إنه «اجتمع مع أفاضل الأطباء، ولازم أكابر العلماء»[٧٣].

وهو بهذا قد أخذ ما عندهم من فوائد المهنة الطبية وأسرار العلوم الحكمية، فكان «من أجلّ الأطباء قدراً وأفضلهم ذكراً، وأعرف مداواة، وألطف مداراة، وأنجع علاجاً، وأوضح منهاجاً»[٧٤]. وقد اقتنى السويدي نسخة نفيسة من شرح ابن أبـي صادق لكتاب «منافع الأعضاء» لجالينوس، يقول ابن أبـي أصيبعة عنها: «وهي صحيحة منقولة من خط المصنف، ولم يكن قبل ذلك منها نسخة في الشام»[٧٥].

وقد عمل السويدي في البيمارستان النوري الكبير، فكان علاجه على أحسن ما يكون، ولبراعته عمل مدرساً بالمدرسة الدخوارية[٧٦]، فجمع بين الجانب العملي والجانب النظري من الطب.

وقد نظم السويدي أبياتاً يمدح بها ابن أبي أصيبعة وكتابه «عيون الأنباء» قائلاً:

موفق الدين بلغت المنى ... ونلت أعلى الرتب الفاخرة
حملت في التاريخ من قد مضى ... وإن غدت أعظمه ناخرة
فضحك الله بإحسانه ... في هذه الدنيا وفي الآخرة

أهم مؤلفاته:

١ ــ كتاب الباهر في الجواهر.

٢ ــ كتاب التذكرة الهادية والذخيرة الكافية في الطب.

٣ ــ بدر الدين ابن قاضي بعلبك:

هو الحكيم الأجل العالم الكامل بدر الدين المظفر ابن القاضي الإمام العالم مجد الدين عبد الرحمن بن إبراهيم نشأ بدمشق، وكرسه أبوه القاضي مجد الدين لدراسة الطب، ليقف على أسرارها، ويتقنها فألحقه بمجلس الدخوار الطبيب العالم حيث قرأ عليه صناعة الطب واشتغل بها تحت إشرافه فكان أن «أتقنها في أسرع الأوقات وبلغ في الجزء العلمي والعملي فيها إلى الغايات»[٧٧].

وقد ربط ابن أبي أصيبعة بين ذكاء بدر الدين واشتغاله بالصناعة وتفوقه مما استرعى نظر الشيخ مهذب الدين وإعجابه، يقول في هذا الصدد: «إن الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي كان قد صنف مقالة في الاستفراغ، وقرأها عليه كل واحد من تلامذته. وأما هو فإنه شرع في حفظها وقرأها عليه

من خاطره غائباً من أولها إلى آخرها، فأعجب الشيخ مهذب الدين بذلك منه. وكان ملازماً مواظباً على القراءة والدرس»[٧٨].

وفي عهد الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود بن الملك العادل(٦٣٥ هـ) «كان حظياً عنده، مكيناً في دولته، معتمداً عليه في صناعة الطب، وولاه الرياسة على جميع الأطباء والكحالين والجرائحيين»[٧٩] في الدخوارية، وصدر المنشور بذلك في صفر ٦٣٧ هـ[٨٠] وهذا يعني أن بدر الدين «كان فاضلاً خبيراً بالمباشرة والمعالجة جميل التحيّل للبرء»[٨١].

ولم يبخل بدر الدين على الإنفاق من ماله لتجديد البيمارستان النوري الكبير بدمشق، فمن مآثره أنه «لم يزل مجتهداً حتى اشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير الذي أنشأه ووقفه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله. وتعب في ذلك تعباً كبيراً واجتهد بنفسه وماله حتى أضاف هذه الدور المشتراة وجعلها من جملته، وكبر بها قاعات كانت صغيرة للمرضى، وبناها أحسن بناء، وشيدها، وجعل الماء فيها جارياً، فتكمل بها البيمارستان، وأحسن في فعله ذلك غاية الإحسان»[٨٢]. وربما كان هذا العمل هو ثاني تجديد حقيقي في تاريخ البيمارستان النوري الكبير بدمشق، إذ أنه من المعروف أن رياسة بدر الدين البيمارستان الكبير كانت في ٦٣٧ هـ، ومعنى هذا أن التجديدات تمت بعد هذا التاريخ، على حين أن (ابن جبير) يذكر لنا في رحلته التي قام بها إلى دمشق وزار فيها البيمارستان الكبير (٥٨٠ هـ) قوله: «وفيها مارستان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومه وبأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية والأغذية. . . والبيمارستان الآخر على هذا الرسم، لكن الاحتفال في الجديد أكثر. . .»[٨٣].

ولما كان الدخوار قد أوقف داره مدرسة لتعليم الطب، وأوصى أن

يكون شرف الدين علي بن الرحبي أول مدرس بها، فقد خلفه بعد وفاته بدر الدين الذي صار المدرس في الدخوارية بعد الرحبي. وقد استبانت دقته في العلاج، وحسن تدبيره للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل، فكان أن «كتب له منشوراً برياسته أيضاً على جميع الأطباء وذلك في سنة خمس وأربعين وستمائة»[٨٤].

وإلى جانب هذا نجد بدر الدين تقياً ورعاً، فقد «تجرد لعلم الفقه فسكن بيتاً في المدرسة القليجية التي وقفها الأمير سيف الدين علي بن قليج رحمه الله، وهي مجاورة لدار الحكيم بدر الدين فقرأ الكتب الفقهية والفنون الأدبية، وحفظ القرآن حفظاً لا مزيد عليه، وعرف التفسير والقراءات حتى صار فيها هو المشار إليه، واشتغل بذلك على الشيخ الإمام شهاب الدين ابن شامة رحمه الله. وليس للحكيم بدر الدين دأب إلا العبادة والدين والنفع لسائر المسلمين»[٨٥].

أهم مؤلفاته[٨٦]:

١ ــ مقالة في مزاج الرقة.

٢ ــ كتاب مفرج النفس ـ وقد ذكره ابن العبري (مُفرّح النفس)[٨٧].

٣ ــ كتاب الملح في الطب.

٤ ــ شمس الدين الكُلّي:

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي المحاسن. الأصل في تسميته بالكُلّي أنه حفظ «الكتاب الأول من القانون، وهو الكليات جميعها حفظاً متقناً لا مزيد عليه، واستقصى فهم معانيه. ولذلك قيل له الكلّي»[٨٨].

وقد نزح إلى دمشق مع والده الذي كان أندلسياً من أهل المغرب. وفي دمشق وكانت وقتئذ مزدانة بالعلماء الأجلاء أصحاب الرأي والنظر والمشورة، ومن بينهم وفي مقدمتهم جميعاً الدخوار العالم الطبيب، اتجه

الكُلّي إلى مجلس هذا العالم الجليل، وقرأ عليه صناعة الطب، «ولازمه حق الملازمة، وأتقن عليه حفظ ما ينبغي أن يحفظ من كتب الأوائل التي يحفظها المشتغلون في الطب»[٨٩]. وعلى الدخوار قرأ شمس الدين الكلّي كثيراً من الكتب العلمية، وتحت إشرافه ومباشرته، زاول أعمال الصناعة الطبية في البيمارستان النوري الكبير، مثل غيره من الأطباء الذين نهلوا من علم الدخوار، ووقفوا على أسرار المهنة ودقائقها من خلال شروحاته وتفسيراته المتتابعة ولذا فقد نبغ شمس الدين الكُلّي في صناعة الطب فقد كان «جيد الفهم، غزير العلم.. حسن المحاضرة، مليح المحاورة»[٩٠] مما جعل الملك الأشرف موسى بن الملك العادل يلحقه بخدمته.

٥ ــ زين الدين الحافظي:

هو زين الدين سليمان بن المؤيد علي بن خطيب عقرباء، عدّه ابن أبي أصيبعة في جملة تلامذة الدخوار الذين تلقوا عليه الدروس التي حرص كل الطلاب على سماعها، يقول صاحب «عيون الأنباء» واشتغل بصناعة الطب على شيخنا مهذب الدين عبد الرحيم بن علي رحمه الله فحصل علمها وعملها، وأتقن فصولها وجملها[٩١].

وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أيضاً الدور السياسي الذي لعبه في وصول التتار وجيش هولاكو إلى دمشق في عهد الملك الناصر الذي بعثه إلى التتار برسائل، ولكنهم أحسنوا إليه وملكوه، فسهل لهم الطريق، وجعل اليأس والخوف يدب في روع الملك الناصر، هذا إلى جانب ما يذكره التاريخ من أن الملك الناصر كان «جباناً متوقفاً عن الحرب»[٩٢]. ولما دخل التتار إلى حلب ملكوها وقتلوا أهلها وسبوا النساء والصبيان، ونهبوا الأموال، وهرب الناصر متوجهاً إلى مصر، لكن سرعان ما هب سيف الدين قطز سلطان مصر وملكها متوجهاً إلى قتال التتار وهولاكو فكسرهم

ودمرهم في عين جالوت في وادي كنعان.

٦ ــ موفق الدين عبد السلام:

صاحب الأخلاق الحميدة والآراء السديدة، غادر حماة متوجهاً صوب دمشق فأقام بها، وقصد مجلس مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار، فانضم إلى لفيف طلابه، واشتغل عليه بصناعة الطب[٩٣]، وقصد غيره أيضاً حتى تميز في الصناعة وبرع فيها، ووقف على أسرارها.

ولكن موفق الدين رحل عن دمشق بعد أن حصل على ضالته المنشودة وتمكن في الصنعة، فصاحب الملوك وكان جليسهم، يقول ابن أبي أصيبعة: «ثم سافر إلى حلب وتزيد في العلم وخدم الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي صاحب حلب، وأقام عنده، ولم يزل في خدمته إلى أن تملك الملك الناصر يوسف بن محمد دمشق فأتى في صحبته وكان معتمداً عليه، كثير الإحسان إليه»[٩٤]. ثم أحب بعد بعض الوقت أن يطوف ببلاد أخرى فقصد حمص وأقام بها مدة. كما أوفدته حماة إلى دمشق ليأتي منها بالدر، كان من الطبيعي أن يعود إلى مسقط رأسه ثانية ليخدم «الملك المنصور صاحب حماة، ويقيم عنده فيحصل منه على العطايا، ويحظى عنده بالمنزلة الرفيعة».

٧ ــ الصاحب نجم الدين ابن اللبودي (٦٠٧ ـ ٦٧٠ هـ):

هو نجم الدين أبو زكريا يحيى بن الحكيم الإمام شمس الدين محمد ابن عبدان بن عبدان بن عبد الواحد. ولد في حلب وتوجه به أبوه قاصداً مجلس الدخوار بدمشق التي عشقتها قلوب العلماء. وتطلعت إليها أفئدة الألباء، فما أن التحق بمجلس الدخوار العلمي حتى اشتغل عليه بصناعة الطب فتميز فيها وتفرد وهذا ما جعل ابن أبي أصيبعة يصفه بأنه «أوحد في

الصناعة الطبية، ندرة في العلوم الحكمية، مفرط الذكاء، فصيح اللفظ، شديد الحرص في العلوم»[٩٥].

عمل اللبودي طبيباً لصاحب حمص، فظل في خدمته زمناً واستوزره واعتمد عليه، وكان لا يفارقه في السفر والحضر، ولما توفي المنصور صاحب حمص، قصد اللبودي الديار المصرية أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب «فأكرمه غاية الإكرام ووصله بجزيل الإنعام، وجعله ناظراً على الديوان بالإسكندرية»[٩٦]، وخصص له ثلاثة آلاف درهم شهرياً، لكنه لم يقاوم الحنين إلى الشام، فرحل إليها (وصار ناظراً على الديوان بجميع الأعمال الشامية)، وله من لشعر الشيء الكثير مما أورده ابن أبـي أصيبعة وحفظه لنا في (عيون الأنباء).

أهـم كتبـه:

١ ــ مختصر الكليات من كتاب القانون لابن سينا.

٢ ــ مختصر كتاب المسائل لحنين بن إسحاق.

٣ ــ مختصر كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا.

٤ ــ مختصر كتاب عيون الحكمة لابن سينا.

٥ ــ مختصر كتاب الملخص لابن خطيب الري.

٦ ــ مختصر كتاب المعاملين في الأصولين.

٧ ــ مختصر كتاب أوقليدس.

٨ ــ مختصر كتاب مصادرات أوقليدس.

٩ ــ كتاب اللمعات في الحكمة.

١٠ ــ كتاب آفاق الإشراق في الحكمة.

١١ ــ كتاب المناهج القدسية في العلوم الحكمية.

١٢ ــ كافية الحساب في علم الحساب.

١٣ ــ غاية الغايات في المحتاج إليه أوقليدس والمتوسطات.

١٤ ــ تدقيق المباحث الطبية في تحقيق المسائل الخلافية، على طريق مسائل خلاف الفقهاء.

١٥ ــ مقالة في البرشعثا.

١٦ ــ كتاب إيضاح الرأي السخيف من كلام عبد اللطيف.

١٧ ــ غاية الإحكام في صناعة الأحكام.

١٨ ــ الرسالة السنية في شرح المقدمة المطرزية.

١٩ ــ الأنوار الساطعات في شرح الآيات البينات.

٢٠ ــ كتاب نزهة الناظر في المثل السائر.

٢١ ــ الرسالة الكاملة في علم الجبر والمقابلة.

٢٢ ــ الرسالة المنصورية في الأعداد الوفقية.

٢٣ ــ الزاهي في اختصار الزيج المقرب المبني على الرصد المجرب.

٨ ــ رشيد الدين أبو حليقة:

هو رشيد الدين أبو الوحش ابن الفارس أبـي الخير ابن أبـي سليمان داود بن أبـي المنسي بن أبـي خانة، ويعرف بأبـي حليقة.

تعلم الطب على عمه مهذب الدين أبـي سعيد بدمشق ثم رحل إلى مصر، وقفل راجعاً إلى دمشق مرة أخرى فالتحق بمجلس العالم الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار ولازمه ملازمة تامة، واشتغل عليه، وحفظ تعاليمه، وأتقن فنه وعلمه. وكان من جملة ما قرأ عليه كتاب الفصول لأبقراط وكتاب تقدمة المعرفة له، وقد حفظهما حفظاً تاماً في عام.

وقد عمل رشيد الدين أبو حليقة في خدمة الملك الكامل، حتى قيل: إنه كان يعرف نبضه من خلف الستارة.

وكان رشيد الدين بارعاً في تركيب الأدوية وعلاج المفلوجين، وكثيراً ما ركّب الأدوية لمعالجة الحصاة.

وقد عرف عنه أنه كان يجرب الأدوية الجديدة قبل أن يستعملها مع الملوك وأكابر القوم. ومما يذكر أن مؤذن الملك الكامل عرضت له حصاة سدت مجرى البول، وأشرف على الموت، عالجه أبو حليقة فشفي، وكان الملك الكامل قد عرف من المؤذن هذا الأمر فاستدعى أبا حليقة وقال له: يا حكيم إيش هذا الترياق التي عملته واشتهر نفعه للناس هذه الشهرة العظيمة، ولم تعلمني به قط؟ فقال: يا مولانا المملوك لا يعمل شيئاً إلا لمولانا، وما سبب تأخير إعلامه إلا ليجربه المملوك لأنه هو الذي أنشأه فإذا صحت له تجربته ذكره لمولانا على ثقة منه، وإذا قد صح هذا لمولانا، فقد حصل المقصود[٩٧]. وإنْ صح هذا يكون أبو حليقة قد عمل على إجراء التجربة في مجال الطب بشرياً، وهو ما يبدو من كتابه رقم ٤ المذكور ضمن مؤلفاته.

أهـم مؤلـفـاتـه:

١ ـ مقالة في حفظ الصحة.

٢ ـ مقالة في أن الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية.

٣ ـ كتاب في الأدوية المفردة سماه المختار في الألف عقار.

٤ ـ كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداوتها بالأدوية المفردة والمركبة التي قد أظهرت التجربة نجاحها، ولم يُدَاوِ بها مرض يؤدي إلى السلامة إلا ونجحت.

٥ ـ مقالة في ضرورة الموت.

٩ ـ رشيد الدين أبو سعيد:

قرأ صناعة الطب على أعلام العصر، وكان من بين تلامذة الدخوار الذين أثروا المدرسة بالعلم والإضافات الجادة. فقد تتلمذ في بداية الأمر علىٰ رشيد الدين علي بن خليفة عم ابن أبـي أصيبعة وقرأ عليه الكتب التي هـي مبادئ لصناعة الطب، ثم أحكم قراءة كتب جالينوس وفهمها وقرأ

واشتغل على مهذب الدين عبد الرحيم بن علي، حتى أصبح من أهم أطباء الملك الصالح نجم الدين[٩٨].

أهـم مؤلـفـاتـه:

١ ــ كتاب عيون الطب.

٢ ــ تعاليق على كتاب الحاوي لأبي بكر الرازي في الطب.

الفصل الخامس

زملاؤه

١ ـ موفق الدين يعقوب بن سقلاب.

٢ ـ عمران الإسرائيلي.

لقد رافق الدخوار في رحلته العلمية ودرسه العديد من الأطباء، ولكن يبدو أن أهم الشخصيات التي رافقته خلال رحلة عمله: ابن سقلاب وعمران الإسرائيلي، لنقترب أكثر من هذين العالمين لنتعرف عليهما.

١ ـ موفق الدين يعقوب بن سقلاب (ت ٦٢٤ هـ):

أحد زملاء مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار كان أعلم الناس في عصره بكتب جالينوس[٩٩] التي طالعها وفهمها وحفظها، وكان دائماً يستحضرها في خاطره، فإذا سئل أجاب بما قاله جالينوس قائلاً: «هذا ما ذكره جالينوس في كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية من كتاب جالينوس، ويسميه ويعني به النسخة التي عنده»[١٠٠]. والحق أن الإشارة إلى (كذا وكذا ورقة من المقالة الفلانية) يعني به ابن أبي أصيبعة أن ابن سقلاب كان شديد العناية بالموضوع الذي أخذ عنه وصفحاته وأي مقالة، وهذه مسألة مهمة تتعلق بالتوثيق ودقة ذكر المراجع في ذلك العصر. وربما استفاد ابن أبي أصيبعة في تأريخه بكتاب «عيون الأنباء» من مثل هذه الملاحظات، فكتابه مليء بالشواهد على العناية بالمراجع ومواضع الاقتباس، التي تعلمها من أستاذه ابن سقلاب الذي قرأ عليه كلام أبقراط في أوائل اشتغاله بصناعة الطب في المعسكر المعظمي[١٠١]. يقول ابن أبي أصيبعة عن طريقته «فكنت أرى من حسن تأتيه في الشرح، وشدة استقصائه للمعاني ـ بأحسن عبارة وأوجزها وأتمها معنى ـ ما لا يجسر أحد على مثل ذلك ولا يقدر عليه، ثم يذكر خلاصة ما ذكره، وحاصل ما قاله حتى لا يبقى من كلام أبقراط موضع إلا وقد شرحه شرحاً لا مزيد عليه في الجودة. ثم إنه يورد نص ما قاله

جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي إلى آخر قوله»[١٠٢].

وكلام ابن أبـي أصيبعة هذا يعني أن ابن سقلاب كان يقوم بتلخيص الدرس بعد شرحه ووضعه في نتيجة هامة. وحدث أن ابن أبـي أصيبعة كان يراجع ما يذكره أستاذه على متن الكتب وشرحها فيجده قد شرح جملة ما بهذه الكتب «من غير أن يزيد فيها ولا ينقص».

أما طريقة ابن سقلاب في العلاج فقد كان يبحث الحالة المرضية التي تعرض عليه ويستقرئ أعراضها (بحيث إنه إذا كان افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً عرضاً، وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالاً إلى أن لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرضى إلا ويعتبره) وهذا ما جعل الملك المعظم يثق في علاجه ويشكر له طريقته.

إذن كان ابن سقلاب يجمع بين إتقان الطريقة النظرية الأكاديمية في الشرح لطلابه، والطريقة الإكلينيكية السريرية التي تقتضي تتبع المرضى وعلاجهم على أحسن ما يكون، ولذا فإن معالجاته «كانت في الغاية من الجودة والنجع؛ وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرضى أولاً تحقيقاً لا مزيد عليه، ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر»[١٠٣].

وقد أفرد ابن أبـي أصيبعة فقرة هامة في مؤلفه «عيون الأنباء» لعقد مقارنة بين ابن سقلاب ومهذب الدين الدخوار، يبين فيها مآثر الرجلين من وجهة نظره، فكثيراً ما اجتمع الاثنان قريباً من دار السلطان في مجلس طبي لينظرا في بعض الأمور الطبية. «فكان الشيخ مهذب الدين أفصح عبارة، وأقوى براعة، وأحسن بحثاً، وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينة، وأبين قولاً، وأوسع نقلاً»[١٠٤]. وسوف نذكر تفصيل هذه المقارنة عند الحديث عن ابن أبـي أصيبعة.

هكذا كانت طريقة هذا العَلَمِ الهام من جيل الأطباء الذين عاصروا

الدخوار وعملوا معه، وقضوا معه فترة عمل هامة تعد من أثرى فترات تاريخ الطب العربي.

٢ ـ عمران الإسرائيلي (٥٦١ ـ ٦٣٧ هـ):

علم هام من أعلام عصر المهذب الدخوار، زامله في المدرسة والعمل، فكلاهما تتلمذ على الشيخ رضي الدين الرحبي وحضر مجلسه، حتى صار متميزاً ونابغاً في العلم والعمل. وكلاهما أيضاً طب في البيمارستان الكبير، وعالج المرضى ووصف الدواء.

والطبيب عمران الإسرائيلي خدم الملك الناصر بصناعة الطب، وحظي بكل تكريم في أيام الملك العادل ثم الملك المعظم، وكان قد أطلق له جامكية وجراية تصل إليه، وأخذ يتردد إلى البيمارستان ويعالج المرضى به، وكان الشيخ مهذب الدين عبد الرحيم الدخوار يعمل في البيمارستان وقتئذ، وكان يظهر في اجتماعهما كل فضيلة، وقد يتهيأ للمرضى من المداواة كل خير. وفي هذه الفترة أيضاً كان ابن أبي أصيبعة يتدرب معهما في أعمال الطب، كعادة طلاب الطب دائماً، فهم بعد أن يتلقوا العلم يعملون في حلقات التدريب العملي تحت إشراف الأساتذة الأجلاء لينهلوا من فيض معرفتهم ما يجعلهم يتقنون الصناعة في مستقبل حياتهم العملية. وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة[١٠٥] كيف كانت معالجة عمران الإسرائيلي للمرضى على أحسن ما يكون، يقول في نص هام: إنه كان يوماً قد أتى البيمارستان مفلوج والأطباء قد ألحوا عليه باستعمال المغالي وغيرها من صفاتهم، فلما رآه وصف له في ذلك اليوم تدبيراً يستعمله، ثم بعد ذلك أمر بفصده. ولما فصد وعالجه صلح وبرأ برأ تماماً.. ورأيته أيضاً يعالج أمراضاً كثيرة مزمنة كان أصحابها قد سئموا الحياة، ويئس الأطباء من برئهم، فبرءوا على يديه بأدوية غريبة يصفها، ومعالجات بديعة عرفها.

الفصل السادس

مؤلفاته

ليس هناك خلافات كبيرة بين المؤرخين حول الشروحات أو المؤلفات التي دونها مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار، فقد ذكر ابن أبـي أصيبعة[١٠٦] ثبتاً كاملاً بمؤلفاته وشروحاته، وهكذا فعل ابن شاكر الكتبـي[١٠٧]، على حين ذهب البعض الآخر[١٠٨] من المؤرخين إلى الاكتفاء بذكر (وصنف التآليف) فقد جاء في ثبت ابن أبـي أصيبعة أن له:

١ ـ اختصار كتاب الحاوي في الطب للرازي.

٢ ـ اختصار كتاب الأغاني الكبير لأبـي الفرج الأصفهاني.

٣ ـ مقالة في الاستفراغ ألفها بدمشق في شهر ربيع الأول سنة اثنين وعشرين وستمائة.

٤ ـ كتاب الجنينة في الطب، وقد ذكره صاحب (كشف الظنون)[١٠٩].

٥ ـ تعاليق ومسائل الطب وشكوك طبية ورد أجوبتها.

٦ ـ كتاب الرد على شرح ابن أبـي صادق لمسائل حنين.

٧ ـ مقالة يرد فيها على رسالة إلى الحجاج يوسف الإسرائيلي في ترتيب الأغذية اللطيفة والكثيفة في تناولها.

ولكن لا نعثر في هذا السرد الذي قدمه ابن أبـي أصيبعة على أي ذكر لشرح كتاب تقدمة المعرفة لمهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار، وما يذكره ابن أبـي أصيبعة فحسب قوله:

«وظهر أيضاً منه في أول خدمته له (أي للملك العادل) نوادر في تقدمة المعرفة، أكدت حسن ظنه به واعتماده عليه[١١٠]. وبطبيعة الحال، فإن هذه

العبارة لا تعني كتاب تقدمة المعرفة، فقد ورد ذكرها عند ابن أبـي أصيبعة وهو بصدد تناول سير الأطباء واتصالهم بالملوك، والمقصود منها المعرفة بالطب ومقدماته على أحسن ما ينبغي، وهنا يظهر أمامنا السؤال التالي: إذا كان ابن أبـي أصيبعة لم يذكر هذا الشرح للدخوار فهل يمكن تفسير الشرح الذي بين أيدينا وقد عرف عن ابن أبـي أصيبعة أنه تتلمذ على الدخوار، وذكر مؤلفاته؟.

والواقع أن هذا التساؤل يمكن الوقوف على إجابة له من خلال تتبع مسار كتاب تقدمة المعرفة وكيفية معرفة المسلمين به، والتعليق عليه.

كتاب تقدمة المعرفة من المؤلفات الهامة التي دونها أبقراط، وقد انتقل هذا الكتاب، وشرح جالينوس عليه، إلى الأطباء والتراجمة العرب في بداية عصر الترجمة، وعملت للكتاب ترجمتان: إحداهما عربية والأخرى سريانية، وهما من عمل حنين بن إسحاق وكان سرجس قد عمل ترجمة سريانية من قبل للمؤلَّف نفسه، لكنها لم تكن جيدة، فطلب سلمويه من حنين ترجمة أخرى. أما شرح جالينوس على تقدمة المعرفة لأبقراط فنقله عيسى بن يحيـى إلى العربية[١١١].

ما الذي يضتمنه كتاب (تقدمة المعرفة) لأبقراط؟ ما هي محتوياته؟ وما الموضوعات التي يتحدث عنها؟.

لقد زودنا اليعقوبـي[١١٢] (ت ٢٩٣ هـ) في كتابه الهام تاريخ اليعقوبـي بأدق وصف لكتب (أبقراط) ومن بينها كتاب تقدمة المعرفة، مما يدل على أنه اطلع على محتوياته والترجمات التي عملت له، وهو يذكر أن الكتاب يتكون من ثلاثة فصول وعشرون تعليماً هي:

التعليم الأول: وفيه يخبرنا أبقراط كيف ينبغي للطبيب أن ينتحل تقدمة المعرفة فإنه الذي يخبر به المرضى بما بهم، وما أصابهم قبل ذلك، وما هو آت عما يصيبهم، وما أغفل المرضى ذكره، وأن قوتها وأسبابها إن كانت من

أخلاط الجسد أو غيره ونحو هذا.

التعليم الثاني: يخبر فيه كيف ينبغي للطبيب أن يحسن النظر في الأمراض الحادة، وكيف ينظر في وجوه المرضى إن كانت تشبه وجوه الأصحاء، وعلامات الوجوه الدالة على الموت، ونحو هذا.

التعليم الثالث: يقول فيه إن كان للمرضى ثلاثة أيام وأربعة والوجوه على حال وجوه الأصحاء وغير ذلك، وينبغي أن يحسن الفكر في الآيات والعلامات على ما تقدم ذكره وفي علامات العينين وأشفارهما والأنف وانضجاع المريض، وكيف ينبغي أن يعمل وما المهلك من علاماته.

التعليم الرابع: يصف رجلي المريض وأحوالهما وانضجاعه، وحك الأسنان بعضها ببعض مع الحمى، والدلائل في ذلك، وإن كان بالمريض خُرَّاج أصابه في مرضه أو قبل مرضه، وما يدل عليه، ويصف اليدين، واضطرابهما وما يدلان على ذلك.

التعليم الخامس: يذكر النفس الكثير السريع، وما يدل عليه ويذكر أفضل العرق في الأمراض الحادة، والعرق الفاضل، والعرق البارد، والعرق المتخبث، ويذكر أن العرق يكون إما من ضعف الأجساد وإما من دوام خراج.

التعليم السادس: يذكر صحة الشراسيف، ولم تكن صحيحة، وضربان عروقها، وما يدل في ذلك، والأورام التي بجنب الشراسيف، ويخبر عن الأورام وما يصيبها.

التعليم السابع: يذكر فيه الخراجات وإذا أزمنت كيف ينبغي أن ينظر فيها وينعت مقاديرها وما يخرج منها، وكيف ينبغي أن يخرج.

التعليم الثامن: الحبن الذي يكون من الأمراض الحادة، والذي يكون من البزاق، والذي من الكبد وما يصيب أصحاب الحبن من الأعراض اللاحقة

بهم من أجله، وعلامات تدل على الموت من اسوداد الأصابع والأرجل ونحو هذا.

التعليم التاسع: يذكر تقابض الخصيتين والذكر ويذكر السبات والنوم وكيف ينبغي أن يكون، والبراز وكيف ينبغي أن يكون.

التعليم العاشر: يذكر فيه البراز كيف يجب خروجه وأسبابه، وكيف ينبغي أن تكون البطن في كل مرض، وألوان البراز الدالة على الموت وغير ذلك، ويصف الرياح والقراقر ونحو ذلك.

التعليم الحادي عشر: يخبر عن البول الصحيح، ثم البول إذا تغير، وأصناف أثقال الأبوال من جهة المثانة.

التعليم الثاني عشر: يذكر فيه القيء وأسبابه والتخمة، وكيف تنفث، ومما تختلط ولونها ويذكر العطاس في جميع الأمراض التي تلي الرئة، وما المميت في ذلك وما المؤذن بانحلال المرض.

التعليم الثالث عشر: يصف فيه النخامة في أمراض الرئة، ولونها مع ألوان النخامات، ويذكر فيه البول والبراز والعرق وما يدل كل واحد من هذا عليه.

التعليم الرابع عشر: يذكر الخراجات المقيحة، وأوقاتها التي تنفجر فيها، ويصف كل ما يخرج منها وكونها في كل إنسان.

التعليم الخامس عشر: يذكر الخراجات الناتئة فيما يلي الآذان وما يحدث ذلك في الذين بهم أمراض الرئة وكيف الدلائل على ذلك والخراجات التي في سوق الذين بهم أمراض وما يلحقهم في ذلك.

التعليم السادس عشر: يذكر الأوجاع الرديئة الذاهبة بالعقل، ويذكر الحميات وأسبابها في أيامها.

التعليم السابع عشر: يذكر تقدمة المعرفة في الأمراض الحادة العسرة المزمنة ويذكر حميات الربع وما يلحق أصحابها من أجلها، والأيام التي تكون فيها ويذكر أوجاعاً تكون في الصدغين والجبهة، ووجع الآذان وما يلحق المرضى.

التعليم الثامن عشر: يذكر أوجاع الحلق المخنقة والحمرة في الرقبة والصدر والثقب وما يلحق المريض من علامات الهلاك في ذلك، ويذكر أسباب الغرغرة وخراجات مع ورم ووجع مؤلم في المفاصل وذكر الخراجات الناتئة في الشباب وشيئاً من أسباب الحمى.

التعليم التاسع عشر: يذكر فيه الحمى ووجع الفؤاد وذكر الأيام التي تطول فيها الحمى مع أوجاع تكون في الحمى.

التعليم العشرون: يخبر كيف ينبغي لمن أراد أن يحكم تقدمة المعرفة أن يعرف ما ينجلب من الأمراض التي لا تزال مؤلمة، وكيف يعلم، وخبر الأركان والعلامات وأجزاء السنة وأسباب البلدان.

ويتضح لنا أن مقصد أبقراط من تدوين كتاب تقدمة المعرفة، الذي يقع في ثلاث مقالات، يتمثل في تعريف العلامات التي يقف بها الطبيب على أحوال مرض في الأزمان الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وعرف أنه إذا أخبر بالماضي وثق به المريض فاستسلم له فتمكن بذلك من علاجه على ما توجبه الصناعة، وإذا عرف الحاضر قابله بما ينبغي من الأدوية وغيرها، وإذا عرف المستقبل استعد له بجميع ما يقابله به من قبل أن يهجم عليه بما لا يمهله في أن يتلقاه بما ينبغي[١١٣].

وينبغي علينا حين نتحدث عن (تقدمة المعرفة) أن نميز بين كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط، ونوادر تقدمة المعرفة لجالينوس. فأما الكتاب الأول فهو يقع في ثلاث مقالات، على ما ذكرنا توا. وأما الكتاب الثاني فهو مقالة

واحدة، وجالينوس «يبحث فيها على تقدمة المعرفة ويعلم حيلاً لطيفة تؤدي إلى ذلك ويصف أشياء بديعة تقدم فعلها في أمر المرضى وخبر بها فعجب منه»[١١٤].

أما كتاب شرح جالينوس لتقدمة المعرفة الذي ترجمه عيسى بن يحيى فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن أمين الدولة ابن التلميذ (ت ٥٦٠ هـ) اختصره حيث يذكر في ثبت مؤلفاته أن له كتاب «اختصار شرح جالينوس لكتاب تقدمة المعرفة لأبقراط»[١١٥]. لكن لم يخبرنا هل الاختصار الذي قدمه ابن التلميذ قام على النقل العربي أم السرياني. وربما كان مختصر أمين الدولة ابن التلميذ قد عمل على النسخة السريانية مقارنة بالترجمة العربية، وهذا ما نرجحه؛ فقد «كان خبيراً باللغة السريانية»[١١٦] عالما بأسرارها، ومتبحراً في العربية.

أما الشروحات التي عملت على كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط فيمكن لنا أن نورد ثبتاً بها كما يلي:

١ ــ شرح ابن أبي صادق النَيسابوري[١١٧].

أرجوزة قدمها ابن البذوخ (ت ٥٧٦ هـ) يشرح فيها كتاب تقدمة المعرفة لأبقراط[١١٨].

٣ ــ شرح موفق الدين عبد اللطيف البغدادي لكتاب تقدمة المعرفة لأبقراط[١١٩].

٤ ــ شرح عماد الدين الدنيسري (ولد ٦٠٥ هـ)[١٢٠]

لكن هناك شرحين آخرين لم يذكرهما ابن أبي أصيبعة وهما:

٥ ــ شرح مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار (ت ٦٢٨ هـ).

٦ ــ شرح علاء الدين علي بن أبي الحزم المعروف بابن النفيس (ت ٦٨٧ هـ)[١٢١].

وإذا انتقلنا إلى شرح مهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف

بالدخوار، نجد أمامنا بعض النقاط الهامة التي لا بد من الإشارة إليها، خاصة وأنه قد وردت إشارة في تاريخ الأدب العربي حين كان بروكلمان يؤرخ للكتابات وترجمات حنين بن إسحاق وترجمته لكتاب تقدمة المعرفة لأبقراط فذكر أن كتاب تقدمة المعرفة «عليه شرح لبدر الدين المظفر ابن القاضي البعلبكي (في حدود ٦٣٠/ ١٢٣٢) على أسس دروس مهذب الدين عبد الرحمن (ابن أبي أصيبعة ١/ ٢٦١ س ٤ : عبد الرحيم) بن علي الدخوار (المتوفى سنة ٦٢٨/ ١٢٣٠)»[١٢٢].

وهنا لنا وقفة إذ أن بروكلمان، فيما يبدو لنا، وقع في خطأين متتالين:

الأول: أن بدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك لم يشرح تقدمة المعرفة، وليس له عليه أية شروح.

الثاني: أن بروكلمان انفرد من بين الكتابات التي أرخت للرجل بذكر اسم الدخوار (عبد الرحمن)، وذكر بين الأقواس قول ابن أبي أصيبعة (عبد الرحيم)، مما يدل على شكه في صحة الاسم الذي أورده ابن أبي أصيبعة. والواقع أنه ليس لهذا الشك أي مبرر. فقد رجعنا إلى كثير من الكتب الأخرى التي نقلت عن ابن أبي أصيبعة وأرخت للدخوار الطبيب العالم، ولم نجد فيما توافر لنا من كتابات من وقع في هذين الخطأين، ولسنا ندري من الإشارة التي قدمها بروكلمان من أين استمد معلوماته[١٢٣].

ويرتبط بهذا خطأ آخر وقع فيه بروكلمان حول تقدمة المعرفة. فقد ذكر بعد الموضع السابق بقليل أن حنين بن إسحاق (شرح تقدمة المعرفة لأبقراط) وهذا الشرح موجود في مكتبة باريس تحت رقم باريس أول ٢٨٣٧. وهذا وهم! فقد ترجم حنين تقدمة المعرفة لأبقراط، كما ذكرنا، لكنه لم يشرحه، وإنما نقل شرح جالينوس على تقدمة المعرفة إلى السريانية.

والآن ما هي قصة شرح الدخوار على تقدمة المعرفة، وكيف أن ابن أبي أصيبعة لا يعرف بهذا الشرح؟.

الواقع أن سياق ما أورده ابن أبي أصيبعة من أحاديث عن مهذب الدين الدخوار، يشير إلى أنه لم يكن ملازماً للدخوار ملازمة تامة، وقد تحقق لبدر الدين المظفر بن قاضي بعلبك هذا الشرف، فلازم أستاذه الدخوار، وكان موضع ثقته. وقد أورد بدر الدين في صدر مخطوط تقدمة المعرفة مقدمة يقول فيها: (يقول العبد الفقير إلى رحمة ربه القدير المظفر بن قاضي بعلبك الطبيب بلغه الله آماله في الدنيا والآخرة: إنني لما قرأت على شيخي الشيخ الإمام العالم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الطبيب، رحمه الله تعالى، كتاب تقدمة المعرفة للمؤيد أبقراط اجتهد عليّ غاية الاجتهاد من فرط اجتهادي ومحبتي لهذا أن يعرفني جميع ما علمه وحققه وأكثر ما اطلع عليه من كلام جالينوس وغيره وشرح لي ذلك فضلاً وأورد جميع ما عرفه من الأقاويل التي أوردت على معاني كل فصل منها.

إنه رحمه الله ألزمني بعد ذكره ذلك وعلمي بفهمي له أن أعلقه خوفاً من النسيان على المعاني التي تعب على تخليصها بنفسه، ومما اكتسبه من شيخه ابن المطران ولتبقى محفوظة ينتفع بها على مر الزمان وعاهدني أن لا أدفع هذا الشرح ولا أذيعه لمن لا يعرف قدره، فلما أعان الله ورزقني الإقراء بالمدرسة التي أنشأها لقراءة الطب بدمشق المحروسة، وقع بها من الطلبة المستحقين لهذا الشرح والانتفاع به، ووجدت عنده من الاجتهاد والذكاء ما يوجب لي أن أخصه وأمنحه هذا الشرح العظيم الحسن الجليل وهو الحكيم الأجل العالم كمال الدين محمد بن عبد الرحيم بن مسلم رجاء أن يذكرني بخير عند مطالعته له إن شاء الله».

تلك هي وصية الدخوار لتلميذه، وقد عمل بها بدر الدين وفاءً لأستاذه وحفظاً للعلم. وفي هذا ما يرد على التساؤل الذي قدمناه.

والواقع أن بعض الكتابات الحديثة ذكرت سيرة مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار وأهم كتبه ومن بينها كتاب شرح تقدمة المعرفة؛

فنجد أن خير الدين الزركلي يذكر أن من «كتبه الجنينة في الطب وشرح تقدمة المعرفة في الطب، ومختصر الأغاني للأصفهاني في الأدب، ومختصر الحاوي للرازي في الطب. وله رسائل وتعليقات كثيرة»[١٢٤]. على حين أن عمر رضا كحالة يذكر أن «من تصانيفه: مختصر كتاب الحاوي للرازي في الطب، ومختصر كتاب الأغاني للأصفهاني، ومقالة في الاستفراغ، وشرح تقدمة المعرفة»[١٢٥].

تلك إذن إطلالة شاملة على الجوانب المتعددة للدخوار ومدرسته، والتقاليد التي أرسيت في هذه المدرسة، والتي أصبحت نبراساً للأجيال العلمية فيما بعد حياة الدخوار. ويمكن لنا من خلال تتبع نموذجي ابن النفيس وابن أبي أصيبعة، أن نتبيَّن إلى أي حد مثلت هذه المدرسة إبداعاً علمياً في مصر والشام. وكيف أن تقاليد البحث العلمي التي اتبعتها المدرسة شكلت قوام فكر جديدٍ حمل للأجيال فيما بعد رسالة علمية معرفية ذات معنى ومنتجة عقلياً.

القسم الثاني

ابن النفيس: الإشكالية والمنهج

الفصل الأول : إشكالية الغرب.

الفصل الثاني: المنهج التحليلي وأبعاده.

الفصـل الأول

إشكاليـة الغـرب

يعد الطبيب العربي العلامة ابن النفيس[١] من أهم علماء عصره[٢] ومن أعلام المدرسة الدخوارية، بل هو أشهر رموزها العلمية. فهو الطبيب[٣] البارع والفقيه الشافعي[٤]، والمنطقي[٥] الفذ، واللغوي[٦] الذي لا يبارى، الساطع النجم والشارح الأعظم لكتب أبقراط وابن سينا في الطب.

تعلم ابن النفيس في كنف المدرسة الدخوارية، وكان من أبرز أعلامها، وحفظ تعاليم أستاذه الدخوار، وسار على هديها، وأعمل عقله مفكراً وباحثاً ينقب هنا وهناك، يستخرج الفكرة من الأفكار، ولا يقف جامداً ساكناً أمام النصوص الكلاسيكية التي تناولها، وإنما حاول أن يتدخل فيها بعقله وفكره، مجتهداً ليكشف عن مواضع الغموض بطريقة تحليلية رائعة تعتبر بحق مثالاً رائداً ورائعاً للجهد التحليلي الفلسفي والمنطقي من خلال منظور علمي، يربط الأفكار ببعضها ليستخرج منها المعنى الذي يقصده المؤلف، والهدف الأسمى من وراء كلامه.

وحتى نعرف مكانة ابن النفيس العلمية والفكرية نشير إلى أن ابن النفيس شكل للغرب الحديث إشكالية، وشكل للشرق العربي كشفاً جديداً. ففي الربع الأول من هذا القرن قصد الطبيب المصري محيي الدين التطاوي ألمانيا لدراسة الطب، حيث أنهى دراسته هناك. ولحسن الطالع وبينما كان التطاوي «يقلب المخطوطات الموجودة في مكتبة الدولة عثر بالصدفة على المخطوط رقم ٦٢٢٤٣ وعنوانه (شرح تشريح القانون)»[١]. ومالأن أطلع التطاوي أستاذه الألماني على كشف ابن النفيس للوحدة الدموية الصغرى، حتى أرسل الأستاذ إلى العلامة ماكس مايرموف الذي كان موجوداً بالقاهرة وقتئذ، بالأمر، فكان أن أرسل هذا الأخير إلى جورج سارتون الذي

كان أعد موسوعته عن تاريخ العلم، فضمن الملاحق ملاحظة بذلك. وفي عام ١٩٢٤ تقدم التطاوي برسالة عن (الدورة الدموية تبعاً للقرشي) ليحصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة فرايبورج.

لقد انتقل خبر اكتشاف التطاوي بين المستشرقين في العالم، ونحن نعلم أن التنقيب في التراث العربي ازداد مع تطور حركة الاستشراق بصورة كبيرة في بداية هذا القرن. وقد وجه ماكس مايرهوف وبرجشتراسر وشاخت وبوزورث اهتماماً بالغاً لكل كنوز الفكر العربي، فكان أن عكف برجشتراسر على الدراسات اللغوية وأصول التحقيق، وصرف ماكس مايرهوف اهتمامه لدراسة ابن النفيس وحنين بن إسحاق، وشاركه في هذا التوجه جوزيف شاخت الذي كتب عن (ابن النفيس وسرفيتوس وكولومبو) في عام ١٩٥٧ بصورة أكثر تخصصاً، وتعاون مايرهوف وشاخت أيضاً في نشر(الرسالة الكاملية) لابن النفيس، وبعد أن قضى مايرهوف قام شاخت مرة أخرى بنشر (الرسالة الكاملية) وزودها بمقدمة إنجليزية حول عصر ابن النفيس وثبت بمؤلفاته وأماكن تواجدها في العالم. ومع كل هذا الاهتمام لا نكاد نجد أي ذكر لأفضلية الرجل أو أحقيته بين هؤلاء الذين درسوه، وربما كان ذلك من قبيل الإجحاف واستكثار الحقوق المشروعة لهذه الأمة، حتى في العلم.

والواقع أن المحاولات التي بذلت حتى الآن من جانب الباحثين والمفكرين العرب لدراسة ابن النفيس، في غاية الأهمية، وتلقي أضواء كاشفة على كثير من جوانبه العلمية والفكرية، وتدفع إلى دراسات أكثر تطوراً تحاول ربط كل هذا الجهد بصورة أدق لإخراج نتائج العمل العلمي الذي عبر ابن النفيس عن سياقه. وفي هذا الإطار قد يكون من المفيد أن نناقش موقف الغرب من إشكالية التشريح عند ابن النفيس من خلال إعمال منهج النقد الداخلي السلبي للنصوص التي بين أيدينا، لنستخرج منها ما هو جديد من حيث النتائج تاريخياً. ما الذي يطلعنا عليه النقد الداخلي السلبي للنصوص

التي بين أيدينا إذن؟

١ ـ يذكر ماكس مايرهوف في (العلم والطب) الملاحظة التالية: «لقد استثار المسلمون تراجم ممتازة لكتب أبقراط وجالينوس وأحسنوا فهمها.. وأتقنوا ترجمتها بفضل عباقرة العلماء وفطاحلهم أمثال حنين، ولكن إضافات الأطباء المسلمين عليها كادت تقتصر على نواحي المعالجة والتشخيص والوصف المجرد. وهكذا بقيت النظريات والأفكار اليونانية غير مطعون فيها، لكنها صينت وحفظت.. علينا أن نذكر بأن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم الحيوان مطلقاً، ولذلك كانت التجربة في الطب ممنوعة فعلاً، لذلك لم يكن بالمستطاع تصحيح أي غلط تشريحي أو فسلجي وقع فيه جالينوس»(٧).

٢ ـ ويذكر مايرهوف أيضاً، في ذات المقال، الملاحظة التالية: «وإننا لنجد ذكر أندريا الباكو البلوني بإيطاليا (ت ١٥٢٠ م) ضرورياً بوصفه أحد مشاهير مترجمي كتب ابن سينا (القانون) و (النفس) و (تقدمة المعرفة)، وآثار صغيرة لابن رشد ويوحنا بن سيرابيون ومعجم الأطباء الذي كتبه ابن القفطي(٨).

٣ ـ يذكر الدوميلي في مؤلفه (العلم عند العرب) الفقرة التالية: «وأخيراً نخص بالذكر: علاء الدين أبا الحزم ابن النفيس القرشي المصري الشافعي (نحو ١٢١٠ ـ ١٢٨٨ م) لا سيما وقد اكتشفنا حديثاً في كتبه وصفاً للدورة الدموية الصغيرة تشبه شبهاً غريباً (حتى لتشبه كلمة كلمة) الوصف الذي ذكره سرفيتو Serveto في القرن السادس عشر في كتابه Christianismi Restituio. وينبغي أن نستخلص من ذلك أن هذا الطبيب العربي، الذي لم يستطع ولم يرد (كما قال ذلك صراحة) أن يزاول التشريح، قد استطاع أن يكشف عن هذه الدورة الدموية الصغيرة، التي لم يوفق جالينوس في إثباتها، وذلك بمجرد إعمال الفكر فيما عرضه العالم اليوناني»(٩).

٤ ــ ويذكر الدوميلي في تعليقه على هذه الفقرة: «أن أهم كتاب لابن النفيس هو: شرح تشريح ابن سينا. . وعلى خلاف ما تقدم لا نجد لابن النفيس في الغرب المسيحي إلاَّ Ebenefis Philosophi AC Medeci Expositio super quintum Canonem Avicennae Par Andrea Alpago، وهو قسم من طبعة البندقية لكتب ابن سينا سنة ١٥٤٧ م[١٠].

٥ ــ يذكر شاخت وبوزورث في (تراث الإسلام) الفقرة التالية: «كما تذكر العالم الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى وذلك عن طريق الاستنتاج المجرد، ونعني به علي بن النفيس (٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م) ويبدو الآن أن مايكل سيرفيتوس كان على علم بنظرية ابن النفيس هذه»[١١].

٦ ــ وفي فقرة أخرى يذكر شاخت وبوزورث أيضاً ما يلي: «وأخيراً لا بد لنا من أن نذكر مثالاً فريداً لتأثير التراث الإسلامي على الغرب. ذلك أن مؤسس علم التشريح الحديث أندريا فيساليوس نشر في عام ١٥٣٨ م جداوله التشريحية الستة كدراسة تمهيدية لمؤلفه الرئيسي المعروف باسم الصنعة Fabrica الذي كتبه عام ١٥٤٣. وقد ورد في النص اللاتيني لهذه الجداول عدد كبير من الملاحظات العربية والعبرية، بل إن بعض المصطلحات كتبت بحروف عبرية. وقام شارلز سنجر وحايم رابين ببحث دقيق عن هذه الجداول. ولم تكتف هذه الدراسة بشرح النصوص الواردة في الجداول المذكورة شرحاً دقيقاً، بل أظهرت أيضاً كيف اهتدى فيساليوس إلى معرفة المصطلحات في اللغات السامية التي لم يكن هو نفسه ضليعاً فيها. وهكذا حملت جداول فيساليوس التشريحية التراث العربي في الطب إلى مطالع العصور الحديثة»[١٢].

٧ ــ تذكر تيرنر في مؤلفها الهام عن (الكشف العلمي)، وهو كتاب له أهميته وقيمته العلمية خصوصاً في تتبع أفكار العلم الحديث والتأريخ لها، تذكر ما يلي: «تعلم فيساليوس أولاً في جامعة لوفين، وبعد ذلك في باريس

ولم يكن طالباً مكباً على دروسه».

«ووصل إلى علمه أن مثل هذه الفرصة ـ فرصة تعلم الطب بصورة جادة ـ مهيأة في بادوا. . . وجد فيساليوس ميداناً للعمل التجريبي في بادوا التي كانت وقتئذٍ مركزاً عالمياً كبيراً للعلم. . . وبعد عمل استمر أربعة أعوام أكمل فيساليوس كتابه المسمى تركيب الجسم البشري الذي نشر في بازل عام ١٥٤٣. وقد احتوى هذا السفر على اكتشافات مسجلة بدقة عن تركيب الجسم وكيفية قيامه بعمله»، واشتمل على وسائل أيضاً حية بديعة، كما بذلت عناية كبيرة في إعداده ولاقى الكتاب نجاحاً كبيراً. وبعد ذلك باثنتي عشرة سنة اقتضى الأمر طبعة ثانية. وفي هذه الطبعة كان فيساليوس أكثر جرأة مما كان في الطبعة الأولى، إذ أعلن بصراحة عدم موافقته على كثير من آراء جالين، على الأخص ذلك الرأي القائل بأن هناك مساماً في الحاجز الفاصل في القلب، وقد بينت تعاليم فيساليوس أن الآراء يجب أن تكون مؤسسة على أدلة أصلية لا على مراجع من مراجع الماضي.

وكان عمر فيساليوس وقت نشر كتابه العظيم تسعاً وعشرين سنة فقط، ولكنه أغرى لترك عمله في بادوا ليصير طبيب قصر الملك شارل الخامس. وبعد ذلك انتهى عمله كرجل علم. ولكن سرعان ما أتى ثماره»[١٣].

٨ ــ وتذكر تيرنر عن وليام هارفي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٨) الفقرتين التاليتين: «أول مفتاح لهذا الكشف أتى من مدرس هارفي في بادوا، الذي بين له أن هناك صمامات في الأوردة تسمح بانسياب الدم في اتجاه واحد فقط، وهذه الصمامات إنما هي قلابات تفتح كالباب حينما ينساب الدم ماراً في اتجاه واحد، ولكنها توصد بأي انسياب في الاتجاه المضاد»[١٤].

«ويخبرنا هارفي أن هدفه كان اكتشاف الحقائق عن طريق الفحص الواقعي، وليس من كتابات الآخرين. . . واستنتج هارفي من مثل هذه

الدراسات استنتاجاً صحيحاً أن نبض القلب يحدث عندما يتقلص القلب، وأن هذا التقلص يدفع الدم إلى الخارج. . ويعد ذلك درس هارفي انسياب الدم في الأوردة. .»[٢٥].

تكفي الفقرات التي أوردناها لإطلاعنا على موقف العلماء في العالم الغربي. وقبل أن نحلل هذه الآراء نذكر موقفين في عالمنا العربي أحدهما عرضه عمر فرّوخ، والآخر عرضه عبد الرحمن مرحبا.

٩ ـ يذكر عمر فروخ عن ابن النفيس ما يلي: «وهو ينصح بممارسة التشريح؛ لأنه يؤدي إلى فهم وظائف الأعضاء ثم إلى البراعة في شفاء المرضى».

«ولمّا شرح القسم المتعلق بالتشريح في كتاب القانون اهتم كثيراً بتشريح القلب وباتصال العروق به وبتشريح الحنجرة لأنه كان يرى صلة بين التنفس والنبض أو بين التنفس وبين انتقال الدم من الرئة إلى القلب ومن القلب إلى الرئة. واكتشف ابن النفيس الدورة الجزئية (الصغرى) للدم (بين القلب والرئتين»[١٦].

١٠ ـ أما مرحبا فقد ذكر في كتاب (الموجز في تاريخ العلوم عند العرب) الفقرتين التاليتين:

«وبذلك يكون ابن النفيس قد اكتشف لأول مرة ما يسمى بالدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس الأسباني بثلاثة قرون. . . ومما يؤسف له حقاً أن ينقل سرفيتوس وصف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى كلمة كلمة فيعزوه لنفسه ويحسبه الناس هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وإلا فكيف نفسر ذلك الشبه الغريب بين الوصفين»[١٧].

وفي الفترة الثانية يذكر مرحباً: «وعلى كل حال، إن هذا الطبيب العربي الذي لم يستطع ـ ولعله لم يرد ـ أن يزاول التشريح، قد تمكن من

اكتشاف الدورة الدموية الصغرى التي لم يكتب لجالينوس أن يعرف من أمرها شيئاً، وذلك بمجرد إعمال الفكر فيما عرضه الطبيب اليوناني واستخلاص ما فيه من وقائع وما يتسع له من إمكانيات»[١٨].

أما بول غليونجي وسلمان قطاية فإنني أفضل أن أستخدم ما ورد عندهما من آراء في نهاية التحليل لنرسم صورة متكاملة لما حدث إبان الفترة التي نتحدث عنها والواقعة بين ابن النفيس وفيساليوس وسرفيتوس، هذا بالإضافة إلى ما ذهبت إليه بعض الآراء الأخرى التي لها أهميتها ودقتها.

التحليـل النقـدي السلبـي:

يبدو أنه من المحتم علينا أن نلجأ لمنهج التحليل النقدي السلبـي، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وهذا النوع من التحليل ينصب أساساً على بنية النصوص الداخلية، وينفذ إلى أعماق النص وما يقرره، فيتناول بنيته المنطقية والفيلولوجية معاً، وهنا تكون المهمة التي علينا أن نقوم بها متمثلة في محاولة تكذيب لبنية النص، وحذف للتناقضات المنطقية، وبذا يمكن لنا أن نضمن ـ على الأقل ـ قدراً معقولاً من الاتساق المنطقي للحجة التي نقررها.

وربما يكون من المناسب أيضاً أن نشير إلى أن المؤلفين، على اختلاف كتاباتهم يودون أحد أمرين، إما تقرير فضل السبق لابن النفيس دون أن تكون لديهم حجة منطقية قوية يستندون إليها، أو نفي الزعم بأن أحد علماء الغرب فيساليوس أو سرفيتوس اطلع على أي من مؤلفات وكتابات ابن النفيس إبان تلك الفترة. ومن الضروري أيضاً أن نشير أن لا هذا ولا ذاك يعنينا في شيء على الإطلاق، لأننا لسنا بصدد إثبات أو نفي.. إننا ببساطة بصدد تكوين حجة منطقية لها أهميتها يمكن أن تستخدم بالإضافة إلى البنية التاريخية لتأسيس تصور عام قريب من الحقيقة، أو يمثلها، ويكشف لنا، ويصور ما حدث بمضمون صدق عال، بحيث يتيح لنا هذا أن نكشف عن السياق

التاريخي الحقيقي لتلك الفترة المهمة من تاريخ العلم.

على هذا الأساس علينا أن ندلي أولاً ببعض الملاحظات الهامة حول النصوص السابقة باستخدام (نصل أوكام)، فنحذف الزائد منها ونختزلها إلى أقل عدد يسمح لنا بتكوين التصور المنشود.

الملاحظة الأولى: أنه يمكن لنا بكل تأكيد أن نستبعد الفقرة (١٠) التي سبق أن ذكرناها اقتباساً من عبد الرحمن مرحبا، ولهذا الاستبعاد ثلاثة أسباب على الأقل: أما أول هذه الأسباب: فهو ما يذكره مرحبا من أن سرفيتوس ينقل «وصف ابن النفيس للدورة الدموية كلمة كلمة... وإلا فكيف نفسر ذلك الشبه الغريب بين الوصفين». هذه العبارة تماثل التي سبق أن دونها الدوميلي في الفقرة (٣) ويقول فيها: «وقد اكتشفنا حديثاً في كتبه وصفاً للدورة الدموية الصغرى تشبه شبهاً غريباً (حتى لتشبه كلمة كلمة) الوصف الذي ذكره سرفيتو». من الواضح من الفقرتين أن مرحبا نقل وكرر ما ذكره الدوميلي وهو سابق عليه، ولكن بينما يذكر الدوميلي العبارة على طريق السلب، يذكرها مرحبا على طريق الإيجاب. وهذا واضح من العبارتين. وثاني هذه الأسباب، ما يقرره مرحبا أيضاً في الجزء الثاني من الفقرة (١٠) أيضاً بقوله: «وعلى كل حال إن هذا الطبيب العربي الذي لم يستطع ـ ولعله لم يرد ـ أن يزاول التشريح». هذه العبارة سبق أن قررها ماكس مايرهوف في الفقرة (١) على سبيل التنبيه، حتى يتم استبعاد الفكرة، بقوله: «علينا أن نذكر بأن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم الحيوان مطلقاً، ولذلك كانت التجربة في الطب ممنوعة فعلاً». هذا بالإضافة إلى أن الدوميلي نفسه في فقرة (٣) تابع رأي ماكس مايرهوف في عبارته: «وينبغي أن نستخلص من ذلك أن هذا الطبيب العربي، الذي لم يستطع ولم يرد (كما قال ذلك صراحة) أن يزاول التشريح».

وأما السبب الثالث فيرجع إلى أن مرحبا يقرر في الجزء الثاني أيضاً من

الفقرة (١٠) أن ابن النفيس توصل إلى كشفه عن الدورة الدموية الصغرى «بمجرد إعمال الفكر فيما عرضه الطبيب اليوناني»، وهذا القول مستمد مما ذكره الدوميلي في الفقرة (٣) يقول: «وذلك بمجرد إعمال الفكر فيما عرضه العالم اليوناني». وكذلك من عبارة جوزيف شاخت في فقرة (٥) التي يقول فيها: «كما نذكر العالم الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى، وذلك عن طريق الاستنتاج المجرد». ومن ثم فإن حجة مرحبا تصبح تكراراً لا طائل تحته ويجب أن تستبعد.

الملاحظة الثانية: أن الدوميلي في حجته التي يعرضها في الفقرة (٣) يريد أن يؤكد ثلاثة معانٍ متصلة وهي: **المعنى الأول**: حداثة اكتشاف وصف ابن النفيس للدورة الدموية، ومحاولة استخدام برهان الخلف على صحة نسبة الاكتشاف لسرفيتو، وكأن أوربا والعالم اللاتيني كله لم يكن يعلم شيئاً عن كتابات ابن النفيس.

والمعنى الثاني: تأكيده أن ابن النفيس لم يستطع ولم يرد أن يزاول التشريح، وهو في هذا ينهج طريقة ماكس مايرهوف الذي يريد أن ينبهنا إلى استبعاد الفرضية القائلة بممارسة التشريح في العالم الإسلامي (وذلك وفق ما ورد في الفقرة (١)) حتى يسهل أن تقتنع الأذهـان بمثل هذه الحجة السلبية، بأن سرفيتو له فضل السبق، أو هو توصل للمسألة باستقلال تام عن مطالعة ما ترجم من كتب الطب العربـي.

والمعنى الثالث: ما يؤكده الدوميلي متابعاً شاخت في الفقرة (٥) من أن ابن النفيس توصل لاكتشافه من مجرد إعمال الفكر فيما عرضه العالم اليوناني، أي أن ابن النفيس أعمل المنطق بصورة جيدة بحيث استطاع أن يتوصل إلى كشفه. وقد غاب عن بال الدوميلي وشاخت أن جالينوس كان منطقياً من الطراز الأول، بل ذاعت شهرته المنطقية قبل شهرته كطبيب. أفكان يغيب عن باله مثل هذا الاستنتاج المنطقي؟ وربما فطن ماكس

مايرهوف إلى مثل هذه النقطة فلم يقررها صراحة، وإنما اكتفى بالتلميح من بين السطور.

ومن ثم فإن حجة الدوميلي التي قررها في الفقرة (٣) لا يمكن الاستناد إليها لأنها تكرار زائد، ولا تضيف جديداً، فضلاً عما تفتقده من الاتساق المنطقي، على ما سنبين في فقرة تالية.

أما إذا انتقلنا إلى بقية الآراء المطروحة فإننا نجد أن حججها تنقسم إلى الأجزاء التالية:

١ ــ أن التشريح لم يعرف ولم يمارس في العالم الإسلامي، وأن الأوربيين هم أول من مارس التشريح.

٢ ــ أن الدوميلي على خلاف مايرهوف وشاخت وبوزورث يذكر أن أندريا الباجو ترجم كتاب ابن النفيس في شرح التشريح. علينا أن نشير أولاً إلى القضية الأولى المتعلقة بالتشريح، لأنها مع القضية الثانية المتعلقة بترجمة (التشريح) تعدّ الدليل السلبـي الذي نعوّل عليه.

التشريـح في العالـم الإسلامـي:

لقد عثرنا في الكتابات القديمة على نصين يوضحان بصورة كافية خطأ فكرة المستشرقين عن عدم مزاولة التشريح في العالم الإسلامي، إذ يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان فـي الجزء الأول منه على وجه التحديد، أنه لما جرح علي بن أبـي طالب وجمع له الأطباء، لما طعنه عبد الرحمن بن ملجم، وكان أبصرهم بالطب أثير بن عمرو السكوني الطبيب الكوفي المعروف بابن عمر فأخذ أثير رئة شاة حارة فتتبع عرقاً فيها فاستخرجه وأدخله في جراح الإمام علي ثم نفخ في العرق واستخرجه، فإذا عليه بياض الدماء، إذ وصلت إلى أم رأسه، فقال: «يا أمير المؤمنين اعهد عهدك»[١٩]. هذا النص يوضح بصورة كافية أن المسلمين مارسوا الجراحة في أوائل عهد

الإسلام، إنه حتى يمكن للطبيب أن يتتبع عرقاً ويستخرجه، لا بد له أن يعرف موضع العروق، وأيها أساسي.

ومن جهة أخرى، تجمع كل الكتابات التي بين أيدينا أن يوحنا بن ماسويه الطبيب الصيدلاني العربي النصراني السرياني، زاول التشريح، بلا أدنى شك، وهاك النص التالي وهو مأخوذ من ابن أبي أصيبعة الذي يروي أن رسول الخليفة جاء إلى يوحنا وقال له: «يقول لك أمير المؤمنين، زوج هذا القرد من حماحم قردتك، وكان ليوحنا قردة يسميها حماحم، كان لا يصبر عنها ساعة. فوجم لذلك ثم قال للرسول: قل لأمير المؤمنين اتخاذي لهذه القردة غير ما توهمه أمير المؤمنين، وإنما دبرت تشريحها ووضع كتاب على ما وضع جالينوس في التشريح، يكون جمال وصفي إياه لأمير المؤمنين، وكان في جسمها قلة تكون العروق فيها والأوراد والعصب دقاقاً، فلم أطمع في اتضاح الأمر فيها مثل اتضاحه فيما عظم جسمه. فتركتها لتكبر ويغلظ جسمها فأما إذ قد وافى هذا القرد، فستعلم أمير المؤمنين، أنني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله. ثم فعل ذلك بالقرد، فظهر له منه كتاب حسن استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه»[٢٠].

وقد ذكر القفطي وابن أبي أصيبعة أيضاً، كيف أن يوحنا بن ماسويه ـ على ما يروي ـ قتل ابنه. فقد كان ابنه ماسويه متخلفاً، عليه علامات البله، وأراد يوحنا أن يتخلص منه، ففصده وخرج إلى الشام، ومات الابن، ولما بلغ يوحنا موت ابنه، قال: «لولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لا يعنيه لشرحت ابني هذا حياً مثلما كان جالينوس يشرح الناس والقرود فكنت أعرف بتشريحه الأسباب التي كانت لها بلادته وأريح الدنيا من خلقته، وأكسب أهلها بما أضع في كتابي من صفة تركيب بدنه ومجاري عروقه وأوراده وأعصابه علماً، ولكن السلطان يمنع من ذلك»[٢١].

نلاحظ على النص الأول والثاني الملاحظات التالية:

١ ـ قول يوحنا: «وإنما دبرت تشريحها»، وهذا التصريح سوف يحمله الرجل إلى أمير المؤمنين بكل تأكيد، فإن كان هناك نهي عن التشريح تماماً، كما ذكر ماكس مايرهوف في الفقرة (١) بقوله: «إن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم الحيوان مطلقاً»، لو صدق هذا الرأي ما استطاع يوحنا بن ماسويه أن يصرح للرجل ـ الذي سوف يحمل رده إلى أمير المؤمنين ـ بمثل هذا القول.

٢ ـ قول يوحنا: «إنني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله»، هذا القول، يعني أنه لم تكن هناك كتابات في العالم الإسلامي وقتئذ تتكلم عن التشريح، وأن هذا الحدث سوف يعتبر فريداً من نوعه، وهو الأول.

٣ ـ تعليق ابن أبي أصيبعة بالقول: «ثم فعل ذلك بالقرد»، يعني أنه شرّح القرد، وفعل به ما أراد، ووضع الكتاب.

٤ ـ قول يوحنا بعد سماعه موت ابنه المتخلف عقلياً: «لولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لا يعنيه لشرحت ابني هذا حياً»، وهذا يعني ثلاثة أمور؛ **أولها**: أنه كان يريد تشريح ابنه حياً، لكنه خشي مغبة ذلك. **والثاني**: أنه شرح ابنه جسداً ميتاً، وهذا يعني عكس ما زعمه ماكس مايرهوف. **والثالث**: أن التشريح البشري كان يمارس سراً في ذلك الوقت. ولا يمكن بحال من الأحوال أن نزعم مع مايرهوف أن التشريح لم يزاول في تلك الفترة أو بعدها. وإنما غاية ما يمكن أن نقول أن لفظة (السلطان) التي وردت على لسان يوحنا تعني خوفه من رجال الدين، ونحن نعلم أن نفوذ الحنابلة ورجال الدين في هذا العصر كان قوياً، ولو كان فعل علناً، لكانوا أقاموا عليه الحد.

تلك هي الملاحظات التي يمكن لنا أن نستنتجها من يوحنا بن ماسويه. حدث هذا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة، أفلا يمكن لنا أن نتصور مع عامل التقدم الزمني، أن يحدث هذا بصورة أكبر في القرن

السادس أو السابع الهجري.

إن مناقشة قضية التشريح هي ما يعنينا هنا، الآن. ولدينا من الكتابات العربية بينات أخرى كثيرة ترفع من درجة تأييد الفرض القائل بأن العرب مارسوا التشريح. لنستمع إلى بعض علمائنا اليوم وهم يدللون على صحة البينة.

١ ـ تذهب زيجرد هونكه في مؤلفها القيم الذي تتبعت فيه بصبر وأناة إسهامات العرب والمسلمين في شتى الميادين إلى أن «ابن النفيس اعتمد قبل كل شيء على استقراء الطبيعة بواسطة الملاحظة والدرس والتجربة، فرأى تبايناً في تركيب أجسام الحيوانات المختلفة، فأوصى بدراسة التشريح المقارن لكي نلم بالاختلافات. ثم اعتمد التشريح طريقة له في العمل والبحث»[٢٢]. معنى هذا أن هونكه على خلاف كثير من المستشرقين تجد أن ابن النفيس اختط لنفسه منهجاً دقيقاً وهو (اعتماد التشريح طريقة للعمل) حتى يمكن فهم طبيعة كل عضو ووظيفته وكيفية ترابطه بالتآزر مع الأعضاء الأخرى داخل الجسد.

٢ ـ أما خير الله، وهو طبيب بارع، اهتم بدراسة جوانب الطب العربي وإلقاء الضوء عليها بصورة رائعة، فقد أثبت في مناقشاته التي سطرها منذ أعوام طويلة في كتابه عن الطب العربي، أن الأطباء العرب كانوا في موقف حرج، والسبب في هذا أنه في أحيان كثيرة «نجد في الكتابات العربية جملاً كهذه: أن التشريح يكذب ما ذكر، أو (أن التشريح يبرهن كذا وكذا) مما يدل على أنهم قد شرّحوا بعض التشريح ولكن لم يمكنهم المجاهرة به»[٢٣]؛ والسبب في هذا كما يقول ابن النفيس في مقدمة (شرح تشريح القانون)، «فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله (أي جالينوس) إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ، أو أن إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها. وأما منافع

كل واحد من الأعضاء فإنما نعتمد فـي تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم، ولا علينا وافق رأي من تقدمنا أو خالفه».

٣ ــ أما بول غليونجي، وهو طبيب، خبر الطب وعرفه جيداً، وفهم حس الطبيب فيعلق على مقدمة ابن النفيس قائلاً: «هل كانت هذه المقدمة مجرد (حبر على ورق)؟ وهل نقاها علاً عمن سبقوه في التشريح أمثال جالينوس؟ أم هل كان مردها إلى دروس تعلمها بنفسه في مدرسة التجربة اليومية، وهي ترن في آذاننا رنة صادقة كأنها صدى الخبرة الشخصية»[٢٤].

لقد أراد بول غليونجي أن يضفي على المسألة المشكلة خبرته الشخصية كطبيب يعلم أسرار المهنة، وتصور نفسه في عصر ابن النفيس. ماذا كان سيفعل يا ترى؟ لا بد أنه كان سيفطن إلى أن رجال الدين، أصحاب السلطة القوية، في عصر كان طابعه القسوة إلى حد ما، لن يسمحوا للعالم أن يعلن جهاراً نهاراً مزاولته التشريح. إنه إن فعل سيجلب عليه النقمة، وإن سكت يكون قد كتم الحقيقة. وفي حالة الطبيب فإنه يتحدث دائماً بلغته الطبية إلى أطباء يعلمون ويعرفون أسرار المهنة. كان ابن النفيس بلا شك يدرك تماماً أن الطبيب البارع، والمجرب الحاذق، إذا قرأ كلماته بعد سنوات طوال سيعرف مقصده تماماً، وما كان يفعله. وقد دلل بول غليونجي على هذه المقولة أبرع تدليل وهو يناقش المسألة بأسلوب تحليلي رائع من خلال الأمثلة، وانتهى إلى التقرير الآتي: «وإلى هذا فإن أردنا تكوين ملف وهمي عنوانه (هل مارس ابن النفيس التشريح؟» فعلينا أن نضم إليه مستنداً ذكرناه عند الكلام عن (شرح القانون)، وهو نبذة يقول فيها: (التشريح يكذب هذا). ولعل السبب في أن ختم ابن النفيس مقدمته باقتباس من جالينوس هو رد تهمة انتهاك حرمة الجسم البشري، وهي تهمة كانت في عهده خطيرة، والتمويه بإسناد أقواله لهذا العالم الفاضل»[٢٥].

وربما كان هذا التحليل الذي قدمناه يتسق إلى حد كبير مع فقرة رائعة

لها دلالتها، قدمها لنا سلمان قطاية في مؤلفه عن (ابن النفيس)، ذلك أن أنطوان كلوت الطبيب الفرنسي الذي أسس مدرسة الطب في مصر على عهد محمد علي، أراد تشريح الجثث بغرض التدريس، لكنه اصطدم برجال الدين وقتئذ، فما كان من كلوت إلا أن ذهب للشيخ العروسي لمحادثته في الأمر، وهنا كشف سلمان قطاية عن نص هام يعتبر بمثابة بينة جديدة نضيفها إلى ملف بول غليونجي، حيث يقول قطاية: «وقد سجل كلوت نص المناقشة التي جرت بينهما في مذكراته، ويتبين بوضوح أن سبب منع تشريح الجثث هو الخوف من إثارة عواطف العامة إذ يقول: «وأعتقد أنني رأيت في تردده (أي تردد الشيخ) الخوف من الاصطدام بمعتقدات قديمة أكثر من شكه في فكر مقتنع نصف اقتناع. والذي أكد لي هذه الفكرة، أنني توصلت إلى الحصول على موافقته الخفية لتدريس التشريح، لكنه أخذ مني عهداً بألاّ أفعل ذلك إلا باحتراس وسرية»[٢٦].

لقد استطاع قطاية أن يقوم بمحاولة تحليلية تركيبية لنصوص ابن النفيس، تماماً كما فعل بول غليونجي. لقد أثبت غليونجي[٢٧] نقطة الإضافة للرجل في قوله: (والتشريح يكذب هذا)، على حين أن قطاية أضاف نقطة أخرى هامة تثبت أن ابن النفيس زاول التشريح، وهذا ما يتبين من نصه الذي يقول فيه أن الأطباء «كرروا جميعاً خطأ جالينوس... ما عدا ابن النفيس الذي يقول منتقداً جالينوس الذي ادعى أن (المرارة ينفذ منها إلى الأمعاء مجرى آخر تنفذ منه الصفراء إلى تجاويف الأمعاء. وهذا لا محالة باطل، فإن المرارة شاهدناها مراراً، ولم نجد فيها ما ينفذ لا إلى المعدة ولا إلى الإمعاء). ويعلق قطاية أن هذا الكلام حق، فهو يقول إنه (شاهد) المرارة مراراً، معنى ذلك أنه شاهدها عياناً وعلى الإنسان، لأن جالينوس يقول إنك (سترى في بعض الحيوان) لذلك أخطأ، ولأن ابن النفيس شرح الإنسان استدرك الخطأ. وهذا اكتشاف جديد يضاف إلى اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى»[٢٨].

لكن يبدو أن ابن النفيس لا زال بحاجة إلى كشف آخر، وهذا ما سنثبته الآن، لنضيف إلى ملف ابن النفيس الذي وضعه بول غليونجي كشفاً آخر يؤكد سبقه إلى التشريح.

إن النص الذي أراد غليونجي أن يستشهد به، ويستخلص منه عبارة «والتشريح يكذب ما قالوه» ويعتبرها بمثابة الكشف، هذا النص في غاية الأهمية لإضافة بينة إيجابية ترفع من قيمة كشف ابن النفيس وتؤيد زعمنا. لقد اعترض ابن النفيس أصلاً على فهم ابن سينا للقلب وتكوينه، واعتبر غليونجي أن هذا الاعتراض، مجرد اعتراض، والدليل على ذلك أنه ذكر «وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها ابن النفيس»[٢٩]، واعتقد غليونجي أنه أمسك بالخيط بذكره لعبارة ابن النفيس السابقة عن التشريح، ولم يتبين ما يقوله النص بدقة، إذ أن ابن النفيس يقول لنا عن عدد تجاويف القلب عند ابن سينا: «قوله وفيه ثلاثة بطون. وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر، ولا منفذ بين هذين البطنين ألبتة، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها، والتشريح يكذب ما قالوه».

هذا هو النص الذي قدمه ابن النفيس ونقله غليونجي الذي جرى وراء آخر عبارات الرجل، رغم أن البينة بادية في أول النص. إن ما يذكره ابن النفيس من أن ابن سينا يزعم أن القلب فيه ثلاثة بطون، فإن ابن النفيس كان يقصد أن يثبت لنا شيئاً، وهو أن ابن سينا اهتم بتشريح الضفادع، فقلب الضفدع به ثلاثة بطون، وهذا هو ما جعل ابن النفيس يربط آخر النص بأوله، وتصبح عبارة ابن النفيس معناها، لقد فهم ابن سينا أن هناك مماثلة بين قلب الضفدع الذي فيه ثلاثة بطون، وقلب الإنسان، ولكن التشريح يكذب ما ذكره، لأن قلب الإنسان فيه بطنان فقط ولا منفذ بينهما.

بهذه الصورة نكون قد كشفنا بينة جديدة ترفع من درجة تأييد أدلتنا على

ممارسة ابن النفيس للتشريح. وبذا يصبح ملف ابن النفيس الذي كونه غليونجي يحمل المستندات التالية، كدليل وبينة إيجابية:

١ ـ **المستند الأول:** قول ابن النفيس: (والتشريح يكذب هذا). وكان أن وضع غليونجي هذا المستند.

٢ ـ **المستند الثاني:** قول ابن النفيس: (أنه شاهد المرارة مراراً) وقد كشف قطابة عن هذا المستند.

٣ ـ **المستند الثالث:** قول ابن النفيس عن فكرة ابن سينا عن القلب (قوله وفيه ثلاثة بطون.. وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط) وهو مستند جديد أضفناه هنا.

هذا عن البينات والمستندات الإيجابية التي ألفنا منها ملف ابن النفيس.

إلا أن هناك بينات ومستندات سلبية نريد أن نؤلف منها ملفاً جديداً نضيفه إلى أقوال علماء الغرب والمستشرقين. وهاك مستنداتنا.

إن بول غليونجي وهو يعالج موضوع ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الصغرى، كان من الذكاء بحيث استحق الثناء. إذ أن غليونجي تتبع المسألة في صبر وأناة، وفضلاً عن أنه كشف أهمية ابن النفيس، وأظهر أصالة إثبات التطاوي، نجده قد تسلح بملكة نقد تحليلية قوية مكنته من اكتشاف سرقة أخرى خطيرة تمت في هذا القرن، لا تقل بحال من الأحوال عن تلك التي حدثت من قبل وسُرق فيها كل مجهود ابن النفيس.

لقد استكثر الغرب على العرب أن يتنبهوا حتى إلى تراثهم، ويكتشفوا خباياه، وينفضوا الغبار عن الأغلفة التي طويت في المكتبات، بعد أن استنفذ الغرب أهدافه منها. ماذا حدث؟.

نحن نعلم أن أستاذ التطاوي في ألمانيا أرسل خبر ما رواه التطاوي، إلى المستشرق الألماني طبيب العيون ماكس مايرهوف الذي كان وقتئذ

بالقاهرة، وكان أن بدأ ماكس مايرهوف يكتب عن الموضوع، ويتتبع مخطوطات ابن النفيس. حدث ذلك في عام ١٩٣٥، وقد أبلغ سارتون بالمسألة. فكتب عنها في مؤلفه (تاريخ العلم) في الملحق[٣٠].

لكن كيف يمكن لعربي أن يكتشف شيئاً! هذا مستحيل، لا بد من عمل. وهنا ظهرت السرقة الجديدة. وقد ذكر بول غليونجي هذه السرقة الجديدة في ثلاث نقاط متتابعة يقول: «كتب بيني وهاريان في سنة ١٩٣٩ عن ابن النفيس معترفين أنهما استقيا معلوماتهما من مقال مايرهوف (الذي اعترف بفضل التطاوي)»[٣١]. ومن الواضح أن تاريخ هذا الاعتراف جاء بعد صدور كتابات مايرهوف بأربع سنوات.

لكن وجد غليونجي أن المؤلفين عادا في سنة ١٩٤٨ وادعيا بأن «لوكلير لم يذكر ابن النفيس ـ وهذا عكس الحقيقة ـ وأنّ لهما الفضل في ترجمة نص شرح تشريح القانون إذ أنهما طلبا إلى أديب مغربي أن يترجم لهما»[٣٢]. ثم نسيا كل هذا الذي قالاه، «وفي سنة ١٩٥٦ زاد الطين بلة في مقال ثالث عندما ادعوا أن النص الذي نشره عبد الكريم شحادة في رسالته نقل عنهما مغفلين القول بأن ترجمتهما منقولة عن مايرهوف»[٣٣].

ويبدو أن تواضع العالم وألمعيته، هو الأمر الذي جعل بول غليونجي يترفع عن نقد تهافت مثل هذه الآراء التي قصد من ورائها سلب عقولنا، وطمس تراثنا، فجاء بنص من فييت Wiet ليرد به على مثل هذا الزعم قائلاً: «إلا أن فييت في سنة ١٩٥٦ قارن الترجمتين، فاستنتج أن ترجمة هذا الأديب المزعوم تكاد تكون نقلت حرفياً من ترجمة مايرهوف، بل إن الألفاظ التي أغفلت من نص أحدهما أغفلت أيضاً من الثاني، فتساءل بشيء من التهكم هل كان هذا الأديب غَـشَّ الدكتورين بيني وهاريان بأن نقل ترجمة مايرهوف بدلاً من أن يتحمل هو مشقة الترجمة»[٣٤]. وبعد هذا النص لم يعلق غليونجي بكلمة واحدة، اعتماداً على ذكاء القارئ.

إذن نحن هنا أمام حادث سطو علمي من الدرجة الأولى، وقد أعلن للناس جهاراً نهاراً. وهذا الحادث يشكل البينة السلبية الأولى التي نؤلف منها ملف علماء الغرب.

أما البينة السلبية الثانية فتتعلق بتأكيد ماكس مايرهوف أن التشريح لم يزاول في العالم الإسلامي على الإطلاق، لأنه ضد الشريعة. ولست أعرف حقيقة البينات التي استند إليها ماكس مايرهوف وجعلته يزعم مثل هذا التأكيد. إذ من الواضح أن نص الدوميلي الذي سبق أن قدمناه أشار بوضوح إلى أن أندريا الباجو ترجم شرح تشريح القانون لابن سينا، وهذا ما تلافاه ماكس مايرهوف الذي زعم أن الباجو لم يترجم لابن النفيس (نص ١) وإنما ترجم لابن رشد وابن سينا (القانون) ويوحنا بن سرابيون، وبذلك يكون الدوميلي (نص ٤) قد نفى ما زعمه مايرهوف. وقد فصّل بول غليونجي تاريخ أندريا الباجو وكيف أنه نقل كتب الطب العربي من دمشق إلى أوربا، وإلى بادوا بالذات، وهناك ترجمها بمساعدة بعض الأعوان. ولسنا بحاجة إلى تكرار هذه المسألة. وقد أثبتت الكتابات المتأخرة أن أندريا الباجو ترجم فعلاً كتاب (شرح التشريح). وهنا نستطيع أن نتقدم لإضافة البينة الثانية السلبية.

أما الزعم بأن التشريح لم يمارس في العالم الإسلامي، فقد جئنا بثلاثة نصوص. أحدها نص نعتقد أنه ضعيف ويتمثل في حادثة الاعتداء على (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه التي ذكرها ياقوت الحموي. والنصّان الآخران جئنا بهما على غير ما يشتهي ماكس مايرهوف ـ الذي يأبى أبداً أن ينسب كشفاً لعربي ـ وهما ما ذكرناه عن مزاولة يوحنا بن ماسويه للتشريح، ويعلم أمير المؤمنين، وقد ناقشنا هذا تفصيلاً.

بهذه الصورة نكون قد كوّنا ملفاً يحتوي على ثلاث بينات سلبية تقدم دليلاً ضد المستشرقين، وحيثيات هذا الملف هي:

المستند الأول: سرقات بيني وهاريان لفضل التطاوي في الكشف عن اكتشاف ابن النفيس. وقد قدم لنا بول غليونجي هذا المستند.

المستند الثاني: إثبات الدوميلي (من نص ٤) أن أندريا الباجو ترجم (شرح تشريح القانون) بخلاف ما زعم ماكس مايرهوف.

المستند الثالث: أن يوحنا بن ماسويه زاول التشريح على عكس ما اعتقد مايرهوف، لكنه خشي سلطة رجال الدين. وقد أضفنا هذا المستند الجديد إلى الملف.

وما نعتقده من جانبنا بعد كل هذه التحليلات أن المستندات، التي يمكن أن تضاف إلى هذا الملف أو ذاك، قد تزداد في الأعوام القادمة، لاعتقادنا أن البحث في مجهودات ابن النفيس وآرائه الطبية لم ينته بعد.

وهكذا أجدني، عند هذا الحد، ميالاً لأن أضع ملف المستندات الذي بدأه الدكتور بول غليونجي وأضاف إليه الدكتور سلمان قطاية، ثم أضفت إليه مستندين هامين، أقول أجدني بحاجة لأن أضع الملف كاملاً بين يدي القراء. وقد أثبتت الدراسات التي أجراها يوسف زيدان مؤخراً نتائج جديدة أخرى فيما يتصل بإسهام ابن النفيس العلمي، مما يدل على أن تواصل البحث والدرس أصبح قضية ملحة لاكتشاف البينة الحقيقية لفكرنا.

الفصـــل الثانـــي

المنهـج التحليلي وأبعـاده

لا شك أن العالم يستند دائماً في أبحاثه إلى إعمال لمنهج معين حدد خطواته بدقة، ورسم أبعاده بصورة تكفل له سلامة انتقاله من مقدمات معينة إلى نتائج جديدة وأصيلة في الوقت نفسه، وتلك السمة غالبة على أبحاث العلماء على مر العصور، إذ يندر أن نجد من بين العلماء من يتوصل لكشف علمي دون الاستناد إلى منهج محكم واضح المعالم.

وعالمنا الذي نتحدث عنه هنا، أروع نموذج للعالم المدقق الذي يعمل عقله ليستخرج الفكرة من بين الأجزاء المتناثرة والمبعثرة، وتلك في حد ذاتها ميزة تكشف عن عقلية منطقية منظمة تتوخى الدقة والأمانة قبل أن تدفع بالأفكار إلى عقول الناس. فالأمانة العلمية والفكرية تحتم على العالم وتفرض عليه أن يفحص الأفكار ويمحصها ويناقشها، ويتهم ظنه فيها، حتى يتوصل إلى حقيقتها قبل أن يسمح لنفسه بتلقينها عقول الآخرين، تلك العقول التي قد تتشكل من خلال الكلمة، ولا غرابة فالخلق كله بدأ بالكلمة، وما أروعها من كلمة.

لقد درس ابن النفيس كتابات أبقراط إمام الطب وواضعه الأول، ودرس كتابات ابن سينا، خاصة القانون في الطب، وزاول العمل بالطب في البيمارستان، لكنه لم يقف عند حد مزاولة الطب، بل نذر نفسه باحثاً ومعلماً لأجيال من التلاميذ يتعلمون على يديه، ويأخذون العلم خالصاً عنه. وأمر التدريس الأكاديمي يجعل من العالم أو الباحث ناظراً في الشيء بصفة مستمرة، مقلباً إياه على كافة الوجوه، ليستخلص الحقيقة، وليعرف كيف يمكن أن يحل إشكالات قد تعرض له في أثناء العمل والنظر على السواء. هكذا كان ابن النفيس الذي وضع شروحات كثيرة على أفكار كثيرة وردت عند

ابن سينا وغيره، بل وضع شروحات كثيرة على كتاب واحد وهو القانون، مما يعني أنه كان يعيد النظر باستمرار في بعض الأمور الواردة في هذا المؤلَّف. وقد وجدنا أن طريقة ابن النفيس في الدرس وإمعان النظر لم تكن مألوفة لعلماء عصره، على الرغم من اعتقادنا بأنها طريقة أساسية من طرق علماء اللغة والأصول. فما هي طريقة ابن النفيس في كتاباته وشروحاته؟ وإلى أي حد شكلت هذه الطريقة بعداً جديداً من أبعاد الإبداع العلمي العربي إبستمولوجياً؟

ليس بمستغرب أن نجد ابن النفيس الفقيه الطبيب يشرح لطلابه ويلقنهم الدروس من خلال فهم واعٍ بمضمون ما يقول. إنه ينظم الكلام ويرتبه بصورة منطقية معينة، ويعرض تحليلاته عرضاً منطقياً مترابطاً قلما شابته شائبة، مما يدل على نضج فكري وعقلية منطقية مرتبة تتقدم من المقدمات إلى النتائج.

إن شروح ابن النفيس التي بين أيدينا تكشف عن منهجه، وهذه الشروح ذات مستوى عقلي فريد، والدلالة المنطقية البارزة في جهد ابن النفيس يمكن الكشف عنها من خلال شروحه في أثناء عملية الدرس، خاصة وأنه كان يتدخل بعقله وفكره في النصوص التي يقوم بتدريسها، فلا ينقل النص كما هو، وإنما يحلله تحليلاً دقيقاً، ويكشف عن معاني الكلمات فيه والتراكيب اللغوية التي قد يصعب على الدارس فهم دلالتها العلمية.

لا مندوحة لنا إذن من أن نوجه أفكارنا صوب الشروحات التي بين أيدينا، والتي تظهرنا على استخدام علمي رائد للمنهج التحليلي في أدق صورة تقدماً.

تكشف دراستنا لهذا العالم أنه اعتمد في منهجه على صورتين للمنهج التحليلي: أما الصورة الأولى فيستخدم فيها التحليل بمفهومه العام كما نألفه في كثير من الكتابات الفلسفية والمنطقية. وأما الصورة الثانية فهي ما يمكن

أن نطلق عليه التحليل الداخلي الذي يحاول أن ينفذ إلى المعنى الكامن من خلال إجراء عملية تفكيك لبنية النص ليقف على المعنى الحقيقي للكلمات ودلالتها، ثم يقوم مرة أخرى بإجراء عملية بناء للنص محدداً مفهومه ودلالته من خلال السياق، معتمداً على التواصل الإبستمولوجي للنص من خلال شرحه. هذه الطريقة التي تفرد بها ابن النفيس لم تكن مألوفة لعلماء عصره، خاصة في العلوم العملية مثل الطب، ولم تكن مألوفة أيضاً للأستاذ الدخوار الذي تتلمذ عليه ابن النفيس. لقد اكتفى علماء العصر وأقران ابن النفيس في المدرسة الدخوارية بالتحليل فحسب، وعلى حد علمنا، وفي ضوء البينات والشواهد المتاحة لنا في الوقت الحاضر، يجوز لنا أن نقرر بدرجة عالية من اليقين أنه لم يحدث لأحد أقران ابن النفيس أو معاصريه أن اهتم بالتحليل الداخلي، أو تفكيك النص بالصورة التي استخدمها ابن النفيس. نقول هذا التقرير مسبوقاً بعبارة: (بدرجة عالية من اليقين)، لأنه مع وجاهة هذا الحكم منطقياً، فإنه قد نكتشف في المستقبل ـ نتيجة لمزيد من الأبحاث ـ ما يلقي الضوء بصورة منهجية على طابع عصر ابن النفيس.

ومنهج التحليل Analysis من المناهج العلمية التي ذاعت في الحضارة الغربية منذ مطلع القرن السابع عشر: ابتدع ديكارت منهجاً تحليلياً في الفلسفة مستعيراً فكرة التحليل الرياضي من الرياضيات. وأخذ علماء الفيزياء في تحليل التصورات العلمية. واتجه الرياضيون إلى استخدام التحليل بصورة واسعة في شتى فروع الرياضيات. وفي القرن العشرين ظهرت اتجاهات ومدارس فلسفية عديدة اعتمدت على استخدام التحليل منهجاً، ومن بين أهم هذه المدارس الفلسفية مدرسة التحليل المنطقي عند برتراند رسل وجورج مور ولودفج فتجنشتين، وهذه المدرسة ربطت بين المنطق والفلسفة من خلال التحليل والرياضيات، وأرست دعائم التحليل كاملة. التحليل عند رسل جاء من الرياضيات والمنطق بعد أن توحدا في صورة المنطق الرياضي، وعلى أساس هذا النموذج بدأت الفلسفة تأخذ طريقها إلى التحليل، وكانت

محاضرات رسّل في «فلسفة الذرية المنطقية» ومؤلف فتجنشتين «رسالة منطقية فلسفية» بمثابة إعمال دقيق لفكرة التحليل. وعلى أساس التحليل حاول جورج مور أن يؤسس كتابه «مبادئ الأخـلاق». أضف إلى هذا أن مدرسة الوضعية المنطقية التي ظهرت أعمالها تحت تأثير كتابات رواد التحليل الأوائل رسل ـ فتجشتين على وجه الخصوص. جعلت التحليل المنطقي غايتها الأولى، بل الفلسفة كلها عند هذه المدرسة (إن صح اعترافها بوجود الفلسفة) ما هي إلا التحليل. لكن تصوّر التحليل ومفهومه اختلف من فيلسوف لآخر، ولم يتفق الفلاسفة على معنى واحد للتحليل. لا يعنينا الاستخدام المعاصر للتحليل، بقدر ما يعنينا أن نوجه جلَّ عنايتنا واهتمامنا لدراسة وفهم التحليل المنطقي كما مارسه ابن النفيس بصفة خاصة.

إلا أنه ينبغي أن ننبه إلى أن إشارتنا للتحليل عند ابن النفيس لا تتضمن بأي صورة أن نقارن موقفه وفهمه للتحليل بموقف علماء القرن الحالي وفلاسفته. ومع هذا سوف نشير كلما دعت الحاجة إلى ما يفهمه المعاصرون من هذه النقطة أو تلك عند ابن النفيس، لأن المقارنة لا يجوز أن تعقد إلا بين ابن النفيس وأقرانه في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) ومجاوزة هذا المستوى غير مشروعة، ومن ثم لا ينبغي أن نحكم على مفاهيم ابن النفيس وتصوراته بتصوراتنا الراهنة وما وصلنا إليه من معرفة في القرن العشرين بعد سبعة قرون من البحث العلمي والفلسفي المتواصل.

١ ـ التحليل يعني التمييز:

كان ابن النفيس فقيهاً شافعياً، امتازت عقليته بطابع منهجي دقيق، واتسمت بالوضوح الشديد. مما جعله يدرك أهمية تحديد الأشياء وتمييزها عن بعضها حتى لا تختلط، ولذا نجده يضع المفاهيم موضعها الصحيح، وهو ما يتضح لنا من نصوصه التي تثبت أنه كان فاهماً للمعاني التي تنطوي عليها

الألفاظ ودلالتها. يقول ابن النفيس في شرحه على تقدمة المعرفة لأبقراط: «قال أبقراط: إني أرى أنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر».

أدرك ابن النفيس ضرورة التمييز بين المعاني المختلفة التي يمكن أن تكون للمصطلح الواحد حين نستخدمه، وتلك عادة علماء اللغة الذين يهتمون بدراسة المعاني وتحديد المصطلحات والنظر في دلالتها. وهذا الاهتمام إنما يدل من جانب آخر على أهمية الناحية المفهومية المنطقية للفظة الواحدة. ولذا وجدنا ابن النفيس ينبه على هذا في مواضع كثيرة من شروحاته.

يتجه ابن النفيس إلى شرح النص وتحديده بصورة علمية دقيقة ليصبح مفهوماً، وفي متناول عقل الدارس والباحث معاً. فكلمة (سابق النظر) التي وردت في النص تحتاج إلى شرح وتحليل. لذا ينظر ابن النفيس في المعاني المختلفة التي يمكن أن تكون لكلمة (النظر) وتفهم منها، وهنا يذكر ستة معانٍ هي:

١ ــ الانتظار.

٢ ــ تأمل الشيء بالعين.

٣ ــ المقابلة: يقال دور مناظرة، أي متقابلة.

٤ ــ العناية: يقال نظر الله إلى فلان، أي اعتنى به.

٥ ــ الفكر والروية: يقال كذا فيه نظر أي فيه فكر.

٦ ــ العلم.

بعد استعراض هذه المعاني، يرى ابن النفيس أن المعنى الأخير من بينها وهو (العلم) هو المراد هنا، وبذا فإن (سابق النظر) تعني (سابق العلم). ثم يعرف معنى (سابق العلم)، ويقرر أن سابق العلم عند الأطباء اسم للعلامة الدالة على أمر مستقبل، واستعمال ذلك هو الإعلان بما يدل عليه). لكنه في نص لاحق بعد ذلك يذكر أن (فائدة استعمال سابق النظر من جملتها أن يكون

الطبيب أحرى بأن يوثق منه بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى) ثم يذكر في نص آخر منفعتين لسابق النظر (إحداهما أن الناس يعجبون بالطبيب وثانيهما أنه يكون طبيباً فاضلاً). فكأن ابن النفيس هنا يميز تصور العلم عن غيره من التصورات، وهذا التمييز ارتبط عنده بالتعليل Caustion وهو ما نلاحظه كثيراً في أسلوبه، مما جعله ينبه إلى ضرورة فهم المعنى المقصود بقوله: (وإنما قال (أي أبقراط) أن يستعمل الطبيب، ولم يقل المتطبب، لأن استعمال ذلك إنما يتأتى في الطبيب)، وتبدو إشارة ابن النفيس هنا على درجة من الأهمية؛ إذ أنه يشير هنا إلى احتمالين هما:

الأول: أنه كان بإمكان أبقراط أن يقول إنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر، من غير حاجة إلى زيادة قوله (إني أرى).

الثاني: أنه يسمى الكتاب تقدمة المعرفة، وقال هنا سابق النظر، وهذا عكس ذلك، وجعل العبارة فيهما واحدة الجواب.

يعلل ابن النفيس هذا تعليلاً صحيحاً، حيث يرى أن الغرض من زيادة (إني أرى) هو التواضع «لأن قوله إني أرى كذا ليس فيه دعوى أن ذلك كذلك في نفس الأمر، ولا كذلك قوله إنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر، فإنه إخبار عن كون ذلك في نفس الأمر كذلك».

وأما الأمر الثاني فإن الغرض من اسم الكتاب (تقدمة المعرفة) كما يراه ابن النفيس «أن يكون دالاً على ما يستعمل من فنون الطب، فلا يمكن تسميته بسابق النظر أو سابق العلم». والسبب في هذا أن المذكور فيه «مختص ببعض أصناف سابق العلم، وهو ما يختص من ذلك بالأمراض الحادة». لذلك وضع ابن النفيس تعليله قائلاً: «فلذلك كان (تقدمة المعرفة) أولى به، لأنه مناسب لسابق النظر وأما ههنا فتعين أن يقول سابق النظر أو سابق العلم، لأن ذلك اسم للعلامة التي يرى أن استعمالها من أفضل الأمور».

يستنتج مما سبق أن ابن النفيس بحث عن المعاني المختلفة والمتعددة

لكلمة (النظر)، ثم حدد في كل حالة دلالة المعنى، أي ما تدل عليه اللفظة، وبذا يكون قد حصر معاني الكلمة وتتبعها تتبعاً دلالياً كاملاً، وبذا يكون الغرض من الحصر هو البحث عن المعنى الذي قد يصلح التعليل به. وهنا نتساءل: هل كان ابن النفيس هنا يطبق المناهج التي اتبعها الفقهاء والأصوليون على تناوله للنصوص؟ هذا ما يمكن أن نفهمه في ضوء النص الثاني.

تقدمة المعرفة:

(النص الثاني):

قال أبقراط: وذلك أنه إذا سبق فعلم، وتقدم فأنذر المرضى بالشيء الحاضر مما بهم، وما مضى وما يستأنف، وعبر عن المريض كلما قصر عن صفته، كان حرياً بأن يوثق منه بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى، حتى يدعو ذلك المرضى إلى الثقة والاستسلام في يدي الطبيب، وكان علاجه لهم على أفضل الوجوه، إذا كان يتقدم فيعلم من العلل الحاضرة ما تئول إليه . . .

ب ـ مستويات التحليل:

١ ـ تحليل المصطلح:

قبل أن يقدم ابن النفيس على تحليل النص وشرحه، أراد أن يحدد المصطلحات والتصورات، فمثلاً العبارة التي وردت في النص ويقول فيها أبقراط: (وتقدم فأنذر المرضى)، أي الطبيب، هذه العبارة تنطوي على بعض الغموض بسبب كلمة (أنذر).

يرى ابن النفيس أن لكلمة (أنذر) استخدامين، أولهما هو الاستخدام الدارج، أو استخدام العرف العام أو الرجل العادي، وثانيهما استخدام

الطبيب. ووجد أن كلمة (الإنذار) في العرف العام تدل على «الإخبار عن وقوع أمر مذموم في المستقبل، إذ ما يكون إخباراً عن وقوع أمر محمود في المستقبل يسمونه بشارة». هذا الفهم، بطبيعة الحال، يختلف عن فهم الأطباء واستعمالهم، إذ الإنـذار يقال عندهم حقيقة على الإخبار عن وقوع أمر في المستقبل، سواء كان محموداً أو مذمومـاً. ويتابع ابن النفيس تقصي معنى المصطلح قائلاً: (ويقال مجازاً على الإخبار عن وقوع أمر في زمان، سواء كان الزمان ماضياً أو حاضراً أو مستقبلاً، وسواء كان ذلك الأمر محموداً أو مذموماً، وهذا هو المراد ههنا).

فكأن ابن النفيس في هذا التحديد أراد أن يميز بين ما يفهمه الإدراك العام، وما يفهمه الخاصة من المصطلح.

والواقع أن تحديد المصطلح عند ابن النفيس ارتبط بمسألة هامة فهمها الفقهاء والأصوليون وهي ما يعرف باسم طريقة (السبر والتقسيم). هذا المسلك له أهمية خاصة عند علماء الأصول، ويعرفه الدكتور علي سامي النشار[٣٥] في مؤلفه القيم (مناهج البحث عند مفكري الإسلام) بقوله: «هو حصر الأوصاف التي توجد في الأصل والتي تصلح للعلة فـي بادئ الرأي ثم إبطال ما لا يصلح منها فيتعين الباقي للعلية». وهذا التعريف، كما يرى النشار، ومن قبله الأصوليون، ينطوي على عمليتين: أما العملية الأولى فتتمثل في الحصر، وأما الثانية فتتمثل في الإبطال. والمنحصر على ما يقرر النشار «هو ما يوصل إلى اليقين». كان هذا المسلك من الطرق المنهجية الرئيسية عند علماء الأصول والفقهاء، ولذا لم يتردد النشار لحظة واحدة في تقرير «أن السبر والتقسيم عنصر منطقي»[٣٦]. والنقطة الرئيسية هنا هي أن ابن النفيس عرف السبر والتقسيم، باعتباره فقيهاً ومن علماء الأصول. فكيف استخدم معرفته بهذا المبحث في شروحاته؟ وإلى أي مدى نجح ابن النفيس في تطبيق هذا المسلك المنطقي؟.

٢ ـ السبـر والتقسيـم:

الواقع أن ابن النفيس طبق الفهم المنطقي الدقيق للسبر والتقسيم بوضوح وبراعة كاملين على النصوص التي عالجها. والنص الذي اخترناه خير مثال على ذلك؛ إذ وجدناه يطبق خطوة الحصر على النص ككل، مقسماً إياه إلى خمسة تصورات رئيسية هي:

أ ـ وتقدم ـ أي الطبيب ـ فأنذر المرضى.

ب ـ بالشيء الحاضر مما بهم وما مضى وما يستأنف، وعبر عن المريض كلما قصر عن صفته.

جـ ـ كان حرياً بأن يوثق منه بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى.

د ـ حتى يدعو ذلك المرضى إلى الثقة والاستسلام في يدي الطبيب.

هـ ـ إذا كان يتقدم فيعلم مَن العلل الحاضرة ما تئول إليه.

هذه التصورات الخمسة التي في عبارة أبقراط، يرى ابن النفيس أنها مترابطة، وأن الواحد منها يوسل لما يليه. وقد أشرنا إلى تحليل ابن النفيس للتصور الأول.

أما التصور الثاني فيزيد الأول وضوحاً من جانب، ويؤدي إلى ربط التصور الأول بالثالث من جانب آخر. فالمريض الذي (قصر) عن إيضاح المعنى الذي يقصده يلقي بتبعة الفهم على الطبيب الذي عليه أن يستشف المعنى من خلال خبرته وفهمه للمريض، ولذا ربط بين «الإنذار بالماضي والمستقبل» و «استعمال الطبيب سابق النظر»، وهذا ما جعل ابن النفيس يربط بين المعنيين في قوله: «إنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر، وذلك لأن الطبيب إذا أنذر بالماضي والحاضر والمستقبل، وعبر عن المريض كلما قصر عن صفته، حصل بكل واحد من هذه الأشياء المنفعتان المذكورتان»، وهما:

١ ــ منفعة وجوب حسن الظن بالطبيب (حتى يدعو إلى الثقة والاستسلام إليه).

٢ ــ منفعة أن يكون العلاج أفضل.

والواقع أن ابن النفيس يركز على عبارة (بكل واحد من هذه الأشياء) لأن تقرير هذه العبارة هو الذي يفضي إلى التصور الثالث، ولو كان المراد غير ذلك (لم يلزم حصولها عند استعمال سابق النظر).

أما التصور الثالث فيأتي نتيجة منطقية للتصورين السابقين. يشرح ابن النفيس التصور كان حرياً بأن يوثق منه بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى بتفسير معنى القدرة أولاً، ويراد بها الملكة التي بها يتمكن من ذلك متى شاء، وإذ مطلق القدرة ثابت لغير الطبيب أيضاً، ويريد بأمور المرضى الأمور المنسوبة إليهم، وتلك هي الأمراض وأسبابها، وعلاماتها، ومعالجاتها. ومعرفة الطبيب تفترض أن يكون قادراً على أن يعلم هذه الأمور عند المباشرة. ومرة أخرى يميز ابن النفيس بين المصطلحات تمييزاً داخلياً، إذ ينبه على أنه لا ينبغي أن يفهم من كلمة (قادر) بأنه (عالم)، يقول ابن النفيس: ولم يقل وثق منه، لأن الإنذار بتلك الأشياء، لا يلزمه حصول الثقة بالطبيب.

والثقة بالطبيب والاستسلام في يديه ذات فوائد ثلاث، هي:

١ ــ أن ذلك يدعو إلى كثرة مباشرته للمرضى، ويزداد بتلك اطلاعاً.

٢ ــ أن الطبيب حينئذٍ يوثق باللسان منه فيما يشير به، فيتمكن من استعمال ما يرى أنه أجل نفعاً، بدون التقيد بما هو مشهور.

٣ ــ أن المريض حينئذ يكون استعماله لما يشير به الطبيب بقبول، فيكون انتفاعه به أكثر.

هذه الفوائد الثلاث هي التي جعلت للتصور الثالث أهميته المباشرة في تحديد التصور الرابع.

وهكذا ينتقل ابن النفيس إلى شرح التصور الرابع أيضاً، بشيء من التسلسل والتدرج، وبصورة منطقية محكمة، حيث ينتقل من قضية، أو من تصور إلى آخر انتقالاً منطقياً دقيقاً، يبحث عن المعاني ويتتبعها واحداً بعد الآخر، مطبقاً فكرة علماء الأصول عن السبر الذي يعدّ من أقوى الأدلة في إثبات علة الأصل. وفي الوقت نفسه يطبق مبدأ الإبطال، أو ما سمى عند بيكون[٣٧] ومل[٣٨] مبدأ الحذف أو الاستبعاد. وهاك ما يقوله ابن النفيس عن المنفعتين السابق ذكرهما، مطبقاً مبدأ الإبطال: واعلم أن المنفعة الأولى والثانية يختلفان في كثير من الأمور، أحدها أن الفائدة في المنفعة الأولى أكثرها يحصل للطبيب، والثانية للمريض. وثانيها أن حصول الفائدة في المنفعة الأولى لا يكفي فيه علم الطبيب بما يكون في الماضي والحاضر والمستقبل، بل لا بد مع ذلك من الإخبار بذلك، وصدقه في إخباره، ولا كذلك في المنفعة الثانية، فإن فائدتها تحصل وإن لم ينذر الطبيب أصلاً... وثالثها أن حصول فائدة المنفعة الأولى لا يتوقف على مباشرة ذلك المرض، وكذلك المنفعة الثانية، فإن جودة العلاج إنما يكون بعد العلاج.

لعل من الواضح الآن أن ابن النفيس يطبق عمليتي الحصر والإبطال في الوقت نفسه، لكنه مع هذا ينتقل من مستوى السبر والتقسيم إلى مستوى التحليل الداخلي النقدي للنص.

٣ ـ التحليل الداخلي:

يواصل ابن النفيس شرحه على النص، فيذكر بعد الفقرة السابقة مباشرة ومنها مباحث: أحدها: أنه ما السبب في احتياج أبقراط في المنفعة الأولى إلى ذكر منافعها، ولم يحتج إلى ذلك في المنفعة الثانية؟ وثانيها: أنه ما السبب في احتياج أبقراط في المنفعة الثانية إلى ذكر الدلالة، ولم يحتج إلى ذلك في المنفعة الأولى؟ وثالثها: أن جودة العلاج غير مستفاد من استعمال سابق النظر، بل من العلم بما تئول إليه العلل الحاضرة، وحينئذ لا يكون في

ذلك دلالة على فضل العلم بما تئول إليه العلل الحاضرة.

بدأ ابن النفيس يتناول هذه التساؤلات ويتتبعها واحداً بعد الآخر، يقول عن الأمر الأول «أما الأول، فاعلم أن المنفعة التي نذكرها لبيان قضية ما، إنما يحسن الاقتصار عليها إذا كانت غاية يعتد بها. . . فلو سكت أبقراط على قوله كان حرياً بأن يوثق بأنه قادر على أن يعلم أمور المرضى، لم يحسن ذلك، لأن الثقة بالطبيب بدون أن يستسلم إليه في المداواة ليس بغاية يعتد بها. . . فإن أكثر الناس يظنون أنه لا فائدة في الطب إلا مباشرة أعماله، وأن الطبيب إذا لم يباشر فهو كمن عمل شيئاً لا فائدة منه، وإذا لم يستسلم إليه تعذرت عليه المباشرة. وأما المنفعة الثانية، فلم يحتج أبقراط إلى غايتها لأن كون علاج الطبيب أفضل لا شك أنه غاية يعتد بها.

وأما الإجابة على التساؤل الثاني فيقرر فيها أن لزوم كون علاج الطبيب أفضل لأنه يتقدم فينذر بغير معلوم، فلذلك احتاج أبقراط إلى الاستدلال على ذلك، ولا كذلك كون الطبيب أحرى بأن يوثق منه، فإن لزومه لكونه يتقدم فينذر المرضى ظاهر.

وأما التساؤل الثالث، فإنا نسلم أن جودة علاج الطبيب غير مستفادة من استعمال سابق النظر نفسه، ولكن ذلك الاستعمال إنما يتم بعد العلم بما تئول إليه العلل الحاضرة، ولا شك أن جودة الشيء إنما تتم بأمر يلزمه جودة العلاج مما يدل على فضيلته.

لقد انتقل ابن النفيس هنا من مستوى التحليل العادي، ومن مرحلة السبر والتقسيم، إلى مستوى التحليل الداخلي، فتناول معاني الألفاظ أولاً، ثم معاني التصورات، وعرض لهذا الجانب بصورة رائعة. ومع أنه بإمكاننا أن نتوصل الآن إلى بعض النتائج الهامة، فإننا نفضل أن نرجئ هذا إلى بعد تناولنا لنص آخر من كتاب الفصول.

شـــرح فصـول أبقـراط:

(النـص الأول):

قـال أبقراط: العمر قصير، والصناعة طويلة، والوقت ضيق، والتجربة خطر، والقضاء عسر، وقد ينبغي لك أن لا تقتصر على توخي فعل ما ينبغي، دون أن يكون ما يفعله المريض ومن يحضره كذلـك[٣٩].

في شرح ابن النفيس لهذا النص، وجد أن هناك مجموعة مصطلحات لا بد من شرحها تفصيلاً، وبيان ما الذي يعنيه أبقراط تماماً من استخدامها.

١ ـ يشير ابن النفيس إلى أن كلمة (العمر) المستخدمة في هذا السياق مقصود بها مدة الحياة.

٢ ـ ويذكر ابن النفيس أنه برهن في مواضع عديدة من كتاباته على تناهي العمر ودلالة الخبرة الاستقرائية على أن قصر العمر تعني أن الغالبية العظمى من الناس تقع أعمارها بين ستين وسبعين سنة، ونادراً ما يصل العمر إلى مائة وعشرين عاماً.

٣ ـ وكلمة الصناعة المستخدمة في السياق المشروح يذكر ابن النفيس أنها (ملكة نفسانية) يقتدر بها استعمال موضوعات ما، نحو غرض من الأغراض على سبيل الإرادة، صادرة عن بصيرة بحسب الممكن فيها، (والصناعة يقصد بها أبقـراط الطب). ويقول ابن النفيس: أن زيادة الألف واللام في الكلمة يمكـن أن يكون للعقد؟ ومراد أبقراط كما يشرحه ابن النفيس هو أن الطب متعدد الجوانب، وموضوعاته ومسائله تختلف باختلاف المتغيرات التي تطرأ على البدن، وهذه الصناعة تخضع للتغيرات الكمية والكيفية، ولذا وصفها أبقراط بأنها طويلة. وهنا يتدخل ابن النفيس لشرح المعنى الذي يقصده أبقراط خاصة بعد إضافة مفهوم الطول للصناعة، والقصر إلى العمر، فيقول في شرحه: وإنمـا كان الطب طويلاً، لأن مسائله

تتغير بتفنن تغيرات أبداننا، وهي متجددة على اللحظات، لضرورة استمرار التحلل والتغذي، ويلزم ذلك تغيير الكم والكيف. والطول والقصر قد يقالان بالإضافة، وقد يقالان مطلقاً، كقولنا إن الزمان طويل، وهو المراد ها هنا، فإن العمر قصير في نفسه والطب طويل في نفسه، ويلزم ذلك أن يكون كل واحد منهما كذلك بالنسبة إلى الآخر. هذا التفسير الذي يقدمه ابن النفيس يخالف به كلام الحكيم الطبيب جالينوس الذي شرح العبارة نفسها فجعل قصر العمر بالنسبة للصناعة، وطول الصناعة بالنسبة إلى ذاتها. لكن ابن النفيس يجد أن أبقراط لا يعني إلا المعنى الذي ذهب إليه. ولذا وجدنا ابن النفيس يقول: (وما ذكرناه أكثر فائدة) من كلام جالينوس[٤٠].

٤ ـ ويأتي شرح ابن النفيس لمفهوم (الوقت) الموجود في النص ليؤكد صوابه في شرح الفكرة، واستبعاده لفكرة جالينوس، حيث يرى أن قصد أبقراط بالوقت (الزمان الذي يتمكن الإنسان من صرفه إلى الاشتغال بالصناعة). واستخدام أبقراط لكلمة (الوقت) هنا تدل بوضوح تام على (قصر الزمان).

٥ ـ ويقدم ابن النفيس شرحه لمفهوم أبقراط (التجربة خطر)، فيذكر الخطورة هنا تكمن في قبول أبداننا للفساد بشدة. لما كانت أبداننا شريفة وكانت التجربة تعني اختبار فعل ما يورد على البدن، فإنه إذا أردنا في هذه الحالة التأكد والتيقن فإن علينا أن نقوم بالتجريب على البدن، وهنا يكون (الخطر أشد) إذ البدن ليس محلاً للتجريب لشرفه وقدسيته، وهذه فكرة أخلاقية جليلة تتوج صناعة الطب منذ قديم الأزل.

٦ ـ ويشير ابن النفيس في شرحه لمصطلح أبقراط (والقضاء عسر) إلى ثلاثة آراء: **الأول**: أن أبقراط أراد الحكم على المريض بما يئول إليه أمره من صحة أو عطب. **والثاني**: أن أبقراط أراد الحكم بموجب التجربة. **والثالث**: أن أبقراط أراد بالقضاء (القياس) وعبر عنه بالقضاء، لأنه يلزمه

القضاء بموجبه. وهنا يقرر ابن النفيس في ضوء النص أن غرض أبقراط هو الدلالة على صعوبة درك هذه الصناعة، لأن اكتسابها إنما يتم بالتجربة، وهي خطرة، وبالقياس وهو عسر[41].

٧ ــ ويتنبه ابن النفيس إلى أن كلام أبقراط تعرض للنقد من جانب الكثيرين؛ إذ أنه جرت العادة في أوائل الكتب أن تمدح الصناعة ويرغب فيها، وكلام أبقراط ينافي ذلك، وهنا يحصر ابن النفيس الآراء النقدية التي أتت على رأي أبقراط، ويرد عليها: **الأول**: رأي زعم أصحابه أن مراد أبقراط الصد عن تعلم الطب، وهذا الرأي يقبحه ابن النفيس. **والثاني**: يرى عذره في تصنيف الكتب لأن عمر الإنسان لا يفي بابتداع الصناعة الطويلة. **والثالث**: يعذره في تصنيف كتاب الفصول إلى فصول ليكون أسهل ضبطاً. **والرابع**: يرى عذر الطبيب إذا أخطأ. **والخامس**: يرى أن المقصود به حث المتعلم. **والسادس**: يزعم أن المقصود به امتحان همة الطالب. ولم يتردد ابن النفيس في امتحان كل هذه الآراء فيما عدا الأول منها.

ثانياً ــ النتائج:

ما الذي يمكن أن نستنتجه إذن من الفقرات السابقة؟ وما هو فضل ابن النفيس؟ وهل يمكن لنا أن نستخلص الملامح أو السمات العامة التي اتسم بها أسلوب ابن النفيس وطريقته المنهجية؟.

النتيجة الأولى:

أول ما يواجهنا هنا هو الفكرة التي طرحناها حول (النص الأول) المأخوذ من تقدمة المعرفة، والتي جعلناها بعنوان (التحليل يعني التمييز)، والتي تكشف بوضوح تام عن اهتمام ابن النفيس بتحديد معاني Meanings الكلمات، أو الألفاظ، أو إن شئت الحدود Terms بالمصطلح المنطقي، ثم دلالتها Denoting. لم يكن ابن النفيس مجرد شارح لأفكار أبقراط

ونصوصه فحسب، وإنما كان عالماً من علماء اللغة يتحدث إلينا ويزودنا بنظرية هامة في المعنى. وليس هذا بمستغرب على ابن النفيس، فقد ورد في كتب التراجم، وكذا الموسوعات العلمية التي تتبعت مخطوطات الرجل، أنه دوّن كتاباً يعرف باسم كتاب (طريق الفصاحة)، وهو كتاب في اللغة والنحو لم يعثر عليه، وقد روى الصفدي «أن ابن النحاس كان يقول لا أرضى بكلام أحد في القاهرة في النحو غير كلام ابن النفيس»(٤٢). والكتابة في اللغة والنحو تتطلب أن يكون الرجل على قدر عال من التمكن اللغوي، وتعني أيضاً ضرورة امتلاك ناصية الفكر الذي يدوّن به، وهو اللغة العربية. ولا شك أن تمكن الرجل قد وضح أمامنا تماماً من خلال التحليلات المتعددة للألفاظ ومعانيها. هنا وفي هذا الموضع بالذات نجد ابن النفيس اللغوي يمشي جنباً إلى جنب مع ابن النفيس الطبيب، يزودنا الأول بتحليل لغوي بارع للألفاظ، يلتقطه الثاني ليضفي عليه المعنى في السياق Meaning in Context، ويلتقي الاثنان معاً حول نظرية واحدة يصبح السياق فيها معبراً عن ميدان العلاقات الداخلية Internal Relations والعلاقات الخارجية External Relations. وهنا، عند هذا المستوى فحسب، يؤكد لنا حقيقة هامة تتمثل في ضرورة الكشف عن العلاقات بين الوحدات اللغوية المكونة للكلام، وهذا ما يتبين من دراسة النصين الأول والثالث بصفة خاصة وتحليلهما. أضف إلى هذا أن ابن النفيس كان يوجه الحديث إلى الأطباء الذين سوف يمارسون نفس المهنة، أي أنه توجه بالحديث إلى طبقة من المتخصصين لهم مثل ثقافته، وثقافة صاحب النص الأصلي. وهذا ما يجعل الخطاب متصل السياق، ويجعل المعنى ذاته واحداً، لاتصال ثقافة مستويات نفس الطبقة.

هل يا ترى كان ابن النفيس في كل هذه الجوانب يعمل من خلال نظرية محددة في المعنى؟ وإذا كان، فلماذا لم تصل إلينا نظريته أصلاً، وتفصيلاً؟ أم أنه كان يعرف المعايير التي يطبق على أساسها؟ أو بمعنى آخر، هل كان النموذج واضحاً في ذهنه، وكانت ممارسته للتطبيق إعمالاً للنموذج

ببراعة؟ كل هذه التساؤلات تعتبر بالنسبة لنا ـ في حالة ابن النفيس ـ ملحة، وينبغي أن نعثر على إجابة كافية لها، أو على الأقل نحاول وضعها في مكانتها التاريخية التي تستحقها.

إن فكرة السياق والدلالة، كما يفهمها علماء اللغة في عصرنا هذا، مسألة تنتمي برمتها إلى علم المعنى Semantics الذي يقوم على أساس دراسة المعاني ومشكلاتها سواء أكان الأمر مقصوراً على دراسة معاني الألفاظ المفردة أم على دراسة معاني المفردات والجمل والعبارات[٤٣]. وعلم المعنى أيضاً، كما ينظر إليه، أو علم الدلالة، بالمعنى العلمي الدقيق (أحدث فروع علم اللغة كلها، فلم يحظ بشيء من الاهتمام إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحاضر. وهو في الوقت نفسه أصعب المستويات اللغوية أشقها على نفوس الدارسين، ذلك لأنه يعرض لمشكلة المعنى[٤٤]. ومنذ نشأ هذا العلم هناك اتجاهات مختلفة حوله، وقد انقسم علماء اللغة إلى فريقين في هذا الصدد رأى بعض اللغويين إخراج مشكلة المعنى نهائياً من البحث اللغوي، ويرى فريق آخر أن علم الدلالة نفسه ليس ـ في حقيقة الأمر ـ من فروع علم اللغة، وإنما هو حقل للدرس يرتبط بميادين أخرى كثيرة كالمنطق والفلسفة وعلم النفس والاجتماع.

ومن المعروف أن علماء اللغة يدركون أهمية السياق Context[٤٥] ودوره في الحدث اللغوي، ومن المعروف أيضاً أن فكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقية للكلام كانت مطروحة في الفكر الإنساني منذ أفلاطون وأرسطو وعلماء البلاغة العرب[٤٦]، وربما يرجع إلى فيرث Firth في العصر الحديث صياغة أول نظرية حقيقية ممكنة حول المعنى. لنتأمل نظرية فيرث إذن، ونحاول التعرف على ملامحها ومكوناتها الرئيسية.

يعتقد فيرث ضرورة وضع الكلمات في سياقها. وفكرة السياق هذه يمكن أن تصبح إطاراً تجريدياً عاما لدراسة المعنى[٤٧] من خلال العلاقات

الداخلية والخارجية، التي تصبح المحور الرئيسي للكشف عن المعنى الدقيق للحدث اللغوي أو الكلامي، هذا التحليل عند فيرث يستند على ثلاثة أركان أساسية هي:

١ ــ أن يعتمد كل تحليل لغوي على السياق مع ملاحظة ما يتصل به من علاقات أو ظروف مثل شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي، والعوامل والظواهر الاجتماعية والمناخية وعلاقتها باللغة والسلوك اللغوي وقت الكلام، وأثر الكلام في المشاركين فيه مثل الاقتناع أو الاعتراض.

٢ ــ ضرورة تحديد بيئة الكلام المدروس، لأن هذا التحديد يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى.. كما يجب أن تكون الدراسة مقصورة على مستوى لغوي واحد كلغة المثقفين أو العوام.

٣ ــ يجب تحليل الكلام إلى عناصره ووحداته المكونة له للكشف عما بينها من علاقات داخلية لكي نصل إلى المعنى الذي يتصل أيضاً بمستويات التحليل المختلفة... مع ملاحظة أن هذه المستويات ترتبط فيما بينها برباط وثيق لكي تصل في النهاية عبر كل مرحلة أو مستوى إلى المعنى اللغوي للكلام(٤٨).

ويترتب على هذا أن مفهوم المعنى عند فيرث ليس شيئاً في الذهن أو العقل، كما أنه ليس علاقة متبادلة بين اللفظ والصورة الذهنية للشيء، وإنما هو مجموعة من العلاقات والخصائص والمميزات اللغوية التي نستطيع التعرف عليها في موقف معين يحدده لنا السياق(٤٩).

ومن خلال هذا المفهوم وبتطبيق المنهج التحليلي أيضاً على السياق، يصبح السياق عند فيرث نوعين هما:

الأول: السياق اللغوي Linguistic Context الذي يتمثل في العلاقات الصوتية والفونولوجية و لمورفولوجية والنحوية والدلالية.

الثاني: سياق الحال Context of Situation ويتمثل في الظروف الاجتماعية والبيئية والنفسية والثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام.

وانطلاقاً من هذا المفهوم فإن الدراسة العلمية للوحدة الكلامية عند فيرث اقتضت ضرورة التقسيم والتحليل إلى عناصر.

وفي إطار تحليل المعنى وفق رأي فيرث ومدرسته لا بد أن نميز بين المضمون المنطقي Logical Content الذي هو المعنى المعجمي باعتباره جزءاً من النظام الدلالي للغة، و المضمون النفسي Psychological Content الذي يختلف من فرد إلى آخر وفقاً لثقافته، ومع هذا فإننا في نظرية فيرث(لا نستعمل الكلمات بمعناها المنطقي منفصلاً عن مضمونها النفسي)[٥٠].

ومع أن فيرث ومدرسته كانا أكثر اهتماماً بنظرية المعنى، فإن الاهتمام بفكرة العلاقات الداخلية يبدو أكثر وضوحاً لدى مؤسس البحث في علم اللغة الحديث دي سوسير De Saussure الذي نظر للنظام اللغوي ككل على أنه يتألف من عناصر داخلية، وعناصر خارجية، أما العناصر الداخلية فتتمثل في دراسة نظام اللغة الداخلي، على حين أن العلاقات الخارجية تتمثل في دراسة العلاقات القائمة بين اللغة وما يؤثر فيها. ولا بد من دراسة العلاقات الداخلية القائمة بين عناصر النظام ككل؛ لأن دراسة أي عنصر من العناصر بمعزل عن العناصر الأخرى لا قيمة له[٥١].

إنه بوسعنا أن نتوسع في الحديث عن عدد كبير من النظريات اللغوية في العصر الحديث، لكن هذا لن يفيدنا في هذا المقام، وسيؤدي إلى تشعب الموضوع في اتجاهات تخرج عن نطاق البحث الأساسي، وإذا كنا قد عرضنا لموقف فيرث من نظرية المعنى، وفهم دي سوسير للعلاقات الداخلية والخارجية، فإن هذا مجرد استعراض لاستطلاع أوجه الشبه بين فكرة هنا وأخرى هناك، أليست أوجه الشبه بادية للعيان تماماً بين تحليلات فعلية تطبيقية لعالم وطبيب لغوي ينتمي إلى القرن الثالث عشر الميلادي، وبين

أقوال تحليلية لعالم لغوي، مثل فيرث ، ينتمي إلى القرن العشرين؟ أحسب أن المسألة ترتبط على ما يبدو بانتقال ابن النفيس إلى العالم الغربي في شخص شروحاته وتعليقاته على كتب الطب المختلفة، وتلك نقطة جديرة بالبحث والدرس، وهي تطرح علينا سؤالاً في غاية الأهمية: هل عرف علماء اللغة في العالم الغربي نظرية بن النفيس في المعنى، كما عرف الأطباء نظريته في الدورة الدموية؟ نحن لا نملك الآن الإجابة على هذا التساؤل، أو الطرح الجديد للأفكار، ولكن الكشف عن إجابة مقنعة لهذا السؤال بالإثبات أو النفي، لن يكون إلا بتحليل لغوي كامل لنظرية ابن النفيس في المعنى التي أشرنا إليها، وبين نظرية فيرث، وبعد أن نعثر على إجابة في لائحة تحدد لنا أوجه التشابه والاختلاف بين النظريتين، نستطيع أن نبرهن على مدى السبق في هذه النظرية الجديدة، التي نعتقد بدرجة احتمال ممكنة أن أصولها الحديثة تضرب في التاريخ إلى القرن الثالث عشر.

النتيجة الثانية:

في معالجتنا التحليلية للنص الثاني المأخوذ من تقدمة المعرفة أشرنا إلى أن ابن النفيس اعتمد على السبر والتقسيم باعتبار أن هذا المسلك من أهم طرق علماء الأصول، لكن استخدام السبر والتقسيم عند ابن النفيس ارتبط باستخدام طريقة بطلان الدليل ، وهو مسلك أصولي آخر يتكون من مرحلتين: المرحلة الأولى: أن نتلمس أدلة المثبتين للشيء، وتثبت كذبها وضعفها بحيث لا نجد دليلاً آخر على ثبوت الشيء سواها. وإما أن نقوم بعملية حصر وجوه الأدلة، ثم نقوم باستقراء دقيق عليها، ينتهي إلى نفي هذه الوجوه كلها بحيث لا نجد وجوهاً أخرى غيرها (٥٢).

ومن الملاحظ أن الصورة الثانية هي ذاتها الصورة الأولى، وقد كان ابن النفيس على وعي تام ـ بناء على النصوص التي لدينا ـ بكيفية استخدام هذه المسالك وتطبيقها بصورة دقيقة، ولم تكن المسألة، بالنسبة له، بحاجة

إلى شرح، أو تفصيل، فالفقهاء وعلماء الأصول ـ كما هو معروف ـ يطبقون مسالكهم ومناهجهم في أثناء تناولهم للمشكلات التي يعالجونها، وربما عثرنا في وقت من الأوقات على الإشارات المنطقية التي أدلى بها ابن النفيس على كتاب التنبيهات والإشارات ، أو على الشرح الذي وضعه على كتاب الهداية ، فيعود إلينا الأمل في الوقوف على آراء الرجل المنطقية.

النتيجـة الثالـثـة:

كان ابن النفيس منطقياً من الطراز الأول، فقد تميز الأسلوب الذي استخدمه في الشرح والتأليف، على السواء، بطابع هندسي منطقي رشيق. تنساب فيه الأفكار انسياباً فياضاً، وتتشابك تلك الفكرة بغيرها بصورة قوية محكمة، بحيث جاء أسلوبه معبراً عن تسلسل منطقي كحلقات السلسلة المترابطة الأجزاء. وهذا ما يَنُمُّ بوضوح على حرصه الأكيد، منذ البداية، على قوة الأسلوب، ودقة العبارة، والاتساق المنطقي للأفكار. ولما كان الرجل لغوياً قديراً متمكناً من اللغة مالكاً ناصيتها، فقد سيطر بصورة مثلى على تعبيراته اللغوية ومفرداته، مما أدى إلى أن يتسم أسلوبه بطابع السلاسة من حيث استخدام الألفاظ والتراكيب. كما أن أسلوبه لم يكن يركن إلى الاعتماد على زخرف الكلام وعجيبه، وإنما اتخذ من اللغة العلمية البسيطة في الأداء وسيلة مثلى لشرح أفكاره وإيصالها إلى المستمع بدون حشو أو تزيد، وهو في هذا لم يسمح لابن النفيس اللغوي بأن يطغى على ابن النفيس العالم.

إنه ليجدر بي حقاً أن أشير الآن بعد هذه النتائج الثلاث التي أمكن استخلاصها من تحليل بعض جوانب ابن النفيس، أن تلك محاولة أولى في دراسة المنهج عند ابن النفيس، وهي رؤية على طريق فهم المنهج عند الرجل، خاصة وأنه لم يتوافر لنا حتى الآن، ونحن نسعى وراء الدراسات المختلفة هنا وهناك، وإن عثرنا على مقال واحد يتناول المنهج عند

ابن النفيس، أو يشير إلى بعض جوانبه على الأقل، بل كانت الاهتمامات منصبة أولاً وأخيراً على موقف ابن النفيس من فهم الدورة الدموية، وانتقال كشفه هذا إلى العالم الغربي. إن من الواجب على أي دراسة جادة حول هذا العالم وفكره، أن تبدأ بتحليل دقيق لنظريته في المنهج، وتتبُّع دراسته حول نظرية المعنى لما لها من أهمية بالغة في فهم الدراسات اللغوية، خاصة فيما يتعلق بالنظريات المعاصرة المتعددة في المعنى.

ولا شك أن أوجه النقد المختلفة التي يمكن أن توجه إلى هذا البحث، ستفضي حتماً إلى تطوير الأفكار الواردة فيه بصورة أفضل، تعمل على استدراك ما غاب عن بالنا، أو حذف ما يجاوز في تحليلنا. فالبحث العلمي المنهجي ليس إلا رؤية قابلة للتعديل والتطوير، في ضوء مراجعة نقدية جسورة تعمل على ثراء الفكر وتقدمه إلى الأمام.

القسم الثالث

ابن أبي أصيبعة ومنهجه في تدوين كتابه (عيون الأنباء)

الفصل الأول : حياته ونشأته.
الفصل الثاني : عناصر المنهج.
الفصل الثالث : سلبيات منهج ابن أبي أصيبعة.
الفصل الرابع : نقد وتقييم.

الفصل الأول

حياته ونشأته

نحب أولاً أن نناقش مسألة هامة تتعلق بتاريخ حياة ابن أبـي أصيبعة، إذ أن هناك اختلافات كبيرة بين الكتّاب حول هذه النقطة. فبعض الكتابات مثل «البداية والنهاية» لابن كثير تشير إلى أن ابن أبـي أصيبعة مات عن تسعين عاماً، ويتفق معه في هذا النعيمي من القدماء، وأسامة عانوتي، وعمر رضا كحالة من المحدثين. لكن هناك كتابات أخرى تذهب إلى أن هذا المؤرخ الطبيب مات عن سبعين عاماً، وهو ما يشير إليه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، وأحمد عيسى في معجم الأطباء، وما نرى صحته هذا بناءً على البينة التاريخية، واستناداً إلى نصوص ابن أبـي أصيبعة التي أودعها كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) فما هي حقيقة هذا الخلاف إذن؟.

أشار الحافظ ابن كثير في كتابه «البداية والنهاية» إلى ابن أبـي أصيبعة في وفيات سنة ثمان وستين وستمائة تحت عنوان الشيخ موفق الدين، إذ نجده يقول: «أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي الطبيب، المعروف بابن أبـي أصيبعة، له تاريخ الأطباء في عشر مجلدات لطاف، وهو وقف بمشهد ابن عروة الأموي، توفي بصرخد وقد جاوز التسعين»[1]. إننا نلاحظ هنا أن ابن كثير يقرر أن ابن أبـي أصيبعة «توفي بصرخد وقد تجاوز التسعين». وهذا يعني أن تاريخ ميلاد ابن أبـي أصيبعة يكون سنة ثمان وسبعين وخمسمائة (٥٧٨)، ويوافقه في هذا عمر رضا كحالة الذي يذكر عنه في معجم المؤلفين أنه «أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي، المعروف بابن أبـي أصيبعة (موفق الدين، أبو العباس) طبيب، مؤرخ، أديب. ولد بدمشق، وتوفي بصرخد من أعمال جبل الدروز في سورية وقد جاوز التسعين. من تصانيفه: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. وله شعر كثير»[2]. ولم يتنبه كحالة إلى

الخطأ المادي الذي وقع فيه فيما يتعلق بعمر ابن أبي أصيبعة. فقد حدد كحالة تاريخ ميلاد ووفاة الرجل على أنه (٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م ـ ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م). ومعنى هذا أن عمره يكون سبعين عاماً وفقاً للتاريخ الميلادي والهجري معاً، وهذا خطأ، إذ أن هناك فارقاً سنوياً ـ ثلاثة عشر يوماً بين التقويم الهجري والتقويم الميلادي ـ ومعنى هذا أنه لا بد وأن يكون تاريخ ميلاده على حساب سبعين سنة ميلادية (٥٩٣ هـ). أما إذا كان على حساب تسعين سنة فيكون (٥٧٨ هـ.

لكن ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في وفيات سنة ثمان وستين وستمائة، وذكر أنه «مات بصرخد في جمادى الأولى، وقد نيف على سبعين سنة، وكان فاضلاً عالماً في الطب والأدب والتاريخ وله شعر كثير»[٣]، ويوافقه أحمد عيسى صاحب «معجم الأطباء»[٤] الذي نقل ما رواه ابن تغري بردي تماماً، وأشار إلى نص ابن كثير السابق ذكره.

إلا أن كاتباً حديثاً هو أسامة عانوتي زاد الإشكالية المتضمنة هنا حين أشار إلى ابن أبي أصيبعة ولد «سنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م، بدمشق، وتوفي بصرخد (صلخد في جبل حوران في سورية المعروف اليوم بإحدى تسميتين: جبل العرب، جبل الدروز» سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ ـ ١٢٧٠ م، بعدما جاوز التسعين، فهو إذاً قد أدرك عصر الانحطاط إحدى عشرة سنة أو اثنتي عشرة سنة[٥]. ويشير في الهامش إلى تفرد صاحب النجوم الزاهرة بذكر أن ابن أبي أصيبعة توفي وقد نيف على سبعين سنة. ولعل (سبعين) هنا مصحَّفة عن (تسعين) . ومعنى هذا أن أسامة عانوتي يشايع رأي ابن كثير وعمر رضا كحالة، والنعيمي[٦] أيضاً، ويرفض ما ذكره ابن تغري بردي وأحمد عيسى. ولم يلاحظ أسامة عانوتي أن تحديده هذا يعني أن يكون ابن أبي أصيبعة ولد عام ٥٧٨ هـ وهو يخالف ما ذكره في تاريخ ميلاده الذي سبق أن حدده وهو

عام ٦٠٠ هـ، ولا يتفق أيضاً مع ما ذكره كذلك في العبارة التي يقول فيها: «فهو إذاً، قد أدرك من عصر الانحطاط إحدى عشر سنة أو اثنتي عشرة سنة»[٧]، وعصر الانحطاط كما يذكر عانوتي في هامش نفس الصفحة يبدأ هذا العصر بسقوط بغداد في قبضة هولاكو سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م. وكل هذا يختلف عن رأي ماكس مايرهوف الذي يذكر في دائرة المعارف الإسلامية أنه ولد في حدود عام ٥٩٥ هـ في القاهرة[٨] وليس في دمشق، كما اتفق على ذلك كل من ترجم للرجل. ترى أين الحقيقة إذن؟ أولد ابن أبي أصيبعة عام ٦٠٠ هـ، أم عام ٥٩٥ هـ، أم عام ٥٧٨ هـ؟ إن المسألة تحتاج إلى تحليل وتدقيق إذن.

إن الكتابات العربية التي بين أيدينا لم تتناول هذه النقطة بالنقاش، ولكن ماكس مايرهوف وحده هو الذي حاول أن يشير إلى أن ولادته على ما أشرنا كانت في حدود عام ٥٩٥ هـ في القاهرة. والواقع أن ابن أبي أصيبعة ذاته قد أخبرنا ببعض المعطيات التي يمكن من خلالها أن نعرف الحقائق المتعلقة بتاريخ ولادته؛ إذ يقول حينما أخذ يؤرخ لعمه رشيد الدين علي بن خليفة ما نصه: «هو أبو الحسن علي بن خليفة بن يونس بن أبي القاسم بن خليفة، من الخزرج من ولد سعد بن عبادة؛ مولده بحلب في سنة تسع وسبعين وخمسمائة. وكان مولد أبي قبله في سنة خمس وسبعين وخمسمائة بالقاهرة المعزية»[٩]. إن هذا النص يدلنا بوضوح على أنه إذا كان ابن أبي أصيبعة قد مات عن تسعين عاماً، لدلَّ ذلك على أن تاريخ ميلاده يكون في حدود عام ٥٧٨ هـ وهذا ممتنع لأن والده قد ولد عام ٥٧٥ هـ، وإذا كان قد ولد في حدود عام ٥٩٥ هـ على ما ذهب ماكس مايرهوف، أو عام ٦٠٠ هـ كما أشار إلى ذلك أسامة عانوتي الذي لم يقف على مقدار الخطأ التاريخي الذي ارتكبه، لكان ذلك أقرب إلى الصواب، لأن هذا يعني أن والده في ذلك الوقت كان عمره قرابة العشرين أو خمسة وعشرين عاماً. ومن ثم يكون قد مات ـ على ما أرجح ـ عن سبعين عاماً وليس تسعين عاماً.

الفصل الثاني

عناصر المنهج

١ ـ النقد والمقارنة .
٢ ـ وصف مناهج الأطباء .
٣ ـ طابع المديح .

الواقع أن مسألة المنهج والاهتمام بها قضية تشغل كل دارس في تاريخ العلم؛ إذ أن المنهج بالنسبة للمفكر يعتبر بمثابة المنطلق الأساسي الذي يضفي طابع العلمية على العمل العلمي. وقد يعتمد المنهج على معطيات كثيرة، بعضها قد يكون تاريخياً، أو قد يكون علمياً إمبريقياً، أو أدبياً، أو خلاف ذلك. ونحن لا نكاد نجد من بين الكتابات التي تناهت إلينا عن ابن أبـي أصيبعة ما يشير إلى المنهج الذي استخدمه في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، وتلك مشكلة، لأنه علينا أن نستخرج بعض عناصر منهجه من خلال مطالعة هذا الكتاب، وهذا بطبيعة الحال يجعل محاولتنا أشبه بالنحت في الصخر، فقد نصيب في بعض المواضع، وقد نضلّ الطريق في مواضع أخرى، ويترتب على هذا أن ما سوف ندونه عن المنهج عند ابن أبـي أصيبعة يستدعي النقد بصورة كبيرة، حتى يمكن أن تكتمل معالم الصورة الحقيقية لمنهج «عيون الأنباء».

أمر آخر لا بد من التنويه به، وهو أن ابن أبـي أصيبعة ذاته تربـى وتعلم في مدرسة ذات منهج وهي المدرسة الدخوارية، واطلع على إسهامات علماء عصره، ولا يعقل أن من يؤرخ لعلماء ومفكري عصره ويقف على دقائق أفكارهم ومناهجهم لا يكون له منهج محدد في الكتابة. ومن ثم فإن هذا يطلعنا على ضرورة الفصل بين أمرين هما:

الأول: أن يستخدم المؤلف منهجاً محدداً في الكتابة عن وعي وقصد، ورؤية علمية محددة تبرز معالم هذا المنهج.

الثاني: أن يدون المؤلف أخبار وتاريخ العلم والعلماء مستنداً إلى

منهج محدد، ولكن دون أن يشير إلى منهجه لاعتقاده بأن المنهج بديهية أساسية ومسألة الإشارة إليها مسألة زائدة. وهذا التصور هو في غالب ظني كان المنطلق الأساسي للعلماء والمفكرين في عصور النهضة الإسلامية الذين اعتبروا المنهج بديهية أساسية لا تحتاج إلى تفصيل وحديث مطول، فالأصول واضحة في عقولهم، وعلى أساسها يجري العمل العلمي. ومن ثم فإن بعض الإشارات التي نجدها للمنهج أحياناً في كتاب العلماء القدامى، إنما كانت لترسيخ القواعد البحثية في عقول الأجيال الجديدة، ولتذكيرهم بأن القواعد المنهجية يجب أن تراعى في البحث العلمي على المستوى النظري والتطبيقي معاً. وهو ما فعله علماء الغرب فيما بعد ابتداءً من القرن السابع عشر.

أولاً ــ النقد والمقارنة:

اعتمد ابن أبي أصيبعة على النقد والمقارنة كمنهج دقيق، في مواضع كثيرة من كتاباته. ويبدو لنا هذا الملمح بوضوح إذا تفحصنا «عيون الأنباء» بصورة واعية؛ إذ لا ينبغي أن يدور بخلدنا أن كتاب «عيون الأنباء» مجرد مؤلَّف أراد به ابن أبي أصيبعة أن يحكي أطرافاً من السير، أو إعلاماً بالكتابات التي دونها الأطباء في عصره، أو في العصور السابقة عليه؛ وإنما ينبغي النظر إلى هذا المؤلف العمدة على أنه موسوعة طبية، مهما اختلفنا حول مصطلح الموسوعة الطبية، ومهما نظر البعض للمسألة من زاوية أخرى. ولكن ينبغي أن نوضح أيضاً أن نظرتنا لكتاب «العيون» ينبغي أن تكون خاضعة لمقاييس العصر الذي كتب فيه هذا المؤلف العربي العظيم كتابه، ولا ننظر للمسألة بمصطلحات ومقاييس العصر الحالي.

والواقع أن ابن أبي أصيبعة قد فطن إلى أهمية دور النقد والمقارنة في مؤلفه، وكان على وعي بأن النقد عماد الفكر وفطن أيضا إلى أن القراء الذين سوف يتعاملون مع كتابه سوف يقيّمون ما دُوّن، وسوف يعملون النقد

فيه أيضاً. وحتى ندلل على دور النقد والمقارنة عنده يمكن أن نقدم بعض الأمثلة لما ورد في كتابه، وبالطبع لن نجري وراء حشد الأمثلة؛ لأن هذا يعد عملاً سردياً ليست له قيمة كبيرة في تقييم ما يدوّن المفكّر، وإنما يكفي أن يستشهد المرء بمثال أو اثنين للتدليل على صحة فكرته.

يذكر ابن أبـي أصيبعة في تتبعه لسيرة موفق الدين يعقوب المعروف بلقب «ابن سقلاب»، ما يوضح فكرة النقد والمقارنة، حيث يقول: «وكان في أوقات كثيرة لما أقام بدمشق يجتمع هو والشيخ مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي الدخوار في الموضع الذي يجلس فيه الأطباء عند دار السلطان ويتباحثان في أشياء كثيرة من الطب، فكان الشيخ مهذب الدين أفصح عبارة، وأقوى براعة، وأحسن بحثاً. وكان الحكيم يعقوب أكثر سكينة، وأبيَن قولاً، وأوسع نقلاً؛ لأنه كان بمنزلة الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس في سائر كتبه من صناعة الطب. فأما معالجات الحكيم يعقوب فإنها كانت في الغاية من الجودة والنجح، وذلك أنه كان يتحقق معرفة المرض أولاً تحقيقاً لا مزيد عليه، ثم يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر. وكان شديد البحث واستقراء الأعراض بحيث أنه كان إذا افتقد مريضاً لا يزال يستقصي منه عرضاً عرضاً، وما يشكوه مما يجده من مرضه حالاً حالا إلى أن لا يترك عرضاً يستدل به على تحقيق المرض إلا ويعتبره، فكانت أبداً معالجاته لا مزيد عليها في الجودة»[١٠]. ومعنى هذا أنه كان يبحث عن علة المرض محاولاً فهم أسبابه الحقيقية.

نلاحظ من هذا النص أن ابن أبـي أصيبعة في الجزء الأول منه كان يقارن بين بحث الدخوار وبحث ابن سقلاب، إذ على حين أن الدخوار «أفصح عبارة» فإن ابن سقلاب «أبين قولاً»، وبينما يذكر ابن أبـي أصيبعة أن الدخوار «أقوى براعة وأحسن بحثاً»، فإن ابن سقلاب «أوسع نقلاً لأنه كان بمنزلة الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس». ومع أن ابن أبـي أصيبعة

يركز على ذكر مآثر الدخوار وبيان فضله على الطب في عصره، مقدماً إياه على الحكيم يعقوب الذي كان يحفظ قوانين جالينوس في المداواة، إلا أن الحكيم يعقوب «ابن سقلاب» كانت له ميزات طبية أخرى خاصة محاولة فهمه لأسباب المرض.

وفي مستوى ثان من النقد ركز ابن أبي أصيبعة على وصف منهج ابن سقلاب، ولم يقارن به منهج الدخوار الذي آثر أن يذكره في موضع آخر. إن منهج ابن سقلاب في رأي ابن أبي أصيبعة ينتظم ثلاث خطوات أساسية هي:

الأولى: أنه كان يحقق معرفة المرض أولاً عن طريق استقراء الأعراض عرضاً عرضاً.

الثانية: أنه كان يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس.

الثالثة: أنه كان يتصرف في بعض الحالات وفق ما يراه.

ونلاحظ أن ابن أبي أصيبعة يركز على أن «ابن سقلاب» كان بمثابة «الترجمان المستحضر لما ذكره جالينوس»، وأنه «يشرع في مداواته بالقوانين التي ذكرها جالينوس مع تصرفه هو فيما يستعمله في الوقت الحاضر». ولكن ما مغزى هذا؟ وماالذي يقصده ابن أبي أصيبعة من هذه العبارة بالإضافة إلى العبارة السابقة؟ إن ابن أبي أصيبعة لا شك ينتقد «ابن سقلاب» على الرغم من أن ظاهر العبارة يوحي بالمديح، ولكنه جاء بصورة سلبية، إذ لا يمكن أن يكون الطب قد توقف عند مجرد المعرفة الجالينوسية. أَلَمْ يتطور الطب طوال هذه القرون من عصر جالينوس حتى القرن السابع الهجري؟ هذا هو السؤال النقدي الذي أراد ابن أبي أصيبعة أن يطرحه علينا ببساطة، وهذا أيضاً هو السر في وصفه للدخوار بأنه كان «أقوى براعة وأحسن بحثاً». إن الدخوار لم يعتمد على المعرفة التي انحدرت إليه من جالينوس على الرغم مما كان يبدو من كلامه، على ما يذكر ابن أبي أصيبعة أن كتب جالينوس

كانت تعجبه. «وإذا سمع شيئاً من كلام جالينوس في ذكر الأمراض ومداواتها والأصول الطبية يقول هذا هو الطبيب»(١١). ليس هذا الإعجاب إلا ترجمة حقيقية لخبرة الدخوار بكل ما كان يُقرأ عليه من كتب جالينوس(١٢)، لكنه في واقع الأمر كان شديد «التقصي في المعالجة: والإلمام بصفات الأدوية»(١٣). لم يكن ابن أبي أصيبعة يسخر من أستاذه الدخوار على ما زعمت «زيجرد هونكه» حين قالت: «وكان ابن أبي أصيبعة يسخر من أستاذه الذي كان يردد كلما سمع اسم جالينوس ربعض نظرياته، هذا هو الطبيب، هذا هو الطبيب»(١٤)، إن «زيجرد هونكه» لم تستطع أن تفهم روح السياق اللغوي، العربي. لقد فهمت ظاهر العبارة لكنها لم تجتهد غاية الإمكان لربط هذا السياق بمضمون النص داخلياً، وتلك في واقع الأمر المشكلة الأساسية التي وقع فيها جيل كبير من المستشرقين الذين اهتموا بدراسة العلم العربي.

بيد أن ابن أبي أصيبعة لم يقف عند حد وصف إعجاب الدخوار بجالينوس، وإنما وصف طريقته بقوله: «إنه كان جيد البحث لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى بالبيمارستان فتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال صناعة الطب»(١٥)، وهذا هو الجانب العملي في صناعة الطب.

هل يمكن إذن مقارنة هذا الفهم الداخلي للنص بما أشار إليه ابن أبي أصيبعة حين تحدث عن ابن سقلاب؟ وإلى أي درجة يمكن أن تكون المقارنة النقدية؟.

إن إعجاب الدخوار بجالينوس، في رأي ابن أبي أصيبعة، لم يقعده عن البحث والتقصي، في المعالجة أو في الدرس النظري؛ على حين أن إعجاب «ابن سقلاب» بجالينوس جعله يستظهر آراءه؛ فقد كانت له ذاكرة وحافظة قوية، لا تعتمد بطبيعة الحال على البحث والنظر والتقصي والتأمل بقدر ما تعتمد على استرجاع ما قاله القدماء، وهذا منهج استظهاري بحت يهدم الإبداع، ويقتل ملكة الوعي لدى المفكر، ولا يزيد عن كونه ترجماناً

أميناً يستحق الثناء والشكر على اختزانه المعلومات واسترجاعها وقت الضرورة. وقد بيَّن ابن أبـي أصيبعة هذا المعنى عند ابن سقلاب الذي كان يقرأ عليه في أوائل اشتغاله بصناعة الطب في المعسكر المعظَّمي، حيث يذكر أنَّ «ابن سقلاب» في شرحه لكلام «أبقراط» كان «يورد نص ما قاله جالينوس في شرحه لذلك الفصل على التوالي إلى آخر قوله»[١٦]، ثم يذكر ابن أبـي أصيبعة رأيه بشيء من الوقار في هذا الأستاذ قائلاً: «ولقد كنت أراجع شرح جالينوس في ذلك فأجده قد حكى جملة ما قاله جالينوس بأسره في ذلك المعنى. وربما ألفاظاً كثيرة من ألفاظ جالينوس يوردها بأعيانها من غير أن يزيد فيها ولا ينقص، وهذا شيء تفرد به في زمانه»[١٧]. ومغزى رأي ابن أبـي أصيبعة يكمن في خاتمة عبارته «وهذا شيء تفرد به في زمانه»، وكأنه يريد أن يقول لنا إنه لم يكن مألوفاً أن يستظهر الأطباء كتباً وأقوالاً طبية بأسرها، وإنما المألوف كما ذكر من قبل، البحث والتقصي والتأمل ومعرفة الأسباب والأعراض. ومن جانب آخر فإن هذا يعني الإيحاء لنا بأن ابن سقلاب وقت أنْ كان يفشل في العثور على تفسير من خلال كتابات جالينوس للحالات التي تعرض له، كان يجتهد من عنده، أي حسبما يرى، وهنا نجد أنفسنا أمام أحد أمرين: أما الأمر الأول فيتمثل في أن ابن سقلاب كان يجتهد من عنده وفق طريقة أو منهج محدد وخاص به، يتبعه في دراسته للحالات المرضية، ولكن ابن أبـي أصيبعة لم يفطن إليه ولم يتتبع جزئياته وتفصيلاته، ومن ثم تبدو عليه علامات الدهشة من منهج ابن سقلاب، وأما الأمر الثاني فهو أنه لم تكن لهذا الطبيب طريقة خاصة به، ولم يكن علمه على درجة كبيرة من الدراية بحيث يلتف حوله تلاميذ وأتباع يشكلون مدرسة، كما حدث مثلاً في حالة الدخوار الذي أثرت مدرسته الحياة الطبية في العالم العربـي قرابة ثلاثة قرون، ولكن هذا لا يعني أن ممارسة ابن سقلاب للطب لم تكن على مستوى الجودة.

كذلك إذا نظرنا بروح نقدية خالصة فيما ذهب إليه ابن أبـي أصيبعة،

ومن خلال المقارنات، لتبيّن لنا أن الطب الجالينوسي في تلك الفترة، أي القرن السابع الهجري، كان أكثر رواجاً وانتشاراً في بلاد الشام، على حين أن الطب الأبقراطي والسينوي كان أكثر قبولاً في مصر التي ظهرت فيها آراء ابن النفيس، في نفس الفترة التي عاش فيها ابن أبي أصيبعة. لكن ابن أبـي أصيبعة لم يفسر لنا هذا الأمر على الرغم من أن الدخوار كان رئيس الأطباء في ديار مصر والشام . هل المسألة تتعلق باختلافات شتى بين المنهج الأبقراطي والمنهج الجالينوسي؟ أم أن المسألة ترجع إلى تفضيل الأطباء؟ إن الكتابات التي بين أيدينا لا تشير إلى إجابات كافية عن طبيعة هذا الاختلاف.

ثانياً ــ وصـف مناهـج الأطبـاء:

كان لابن أبـي أصيبعة الفضل الأكبر في حفظ بعض ملامح المناهج لدى الأطباء الذين ذاعت شهرتهم في العالم الإسلامي وأثّرت مؤلفاتهم في الغرب. ويجدر بنا أن نذكر طرفاً من هذا الجانب لأهميته في تتبع الطريقة المنهجية التي اعتد بها ابن أبـي أصيبعة.

تناول ابن أبـي أصيبعة سيرة الطبيب أبي بكر الرازي العلمية ومؤلفاته بالدراسة والشرح، وتشير الدراسة التي أوجزها عن الرازي على امتداد الصفحات التي عقدها له، إلى أنه وقف على تفصيلات مهمة حول علم الرازي ومنهجه، وهو ما يبدو من الاستعراض الدقيق والتتبع المفصل لمؤلفات الرازي وما تحتوي عليه. وقد أشار ابن أبـي أصيبعة في هذا الصدد إلى أمرين يتعلقان بالمنهج عند الرازي، مما يدل على استحسانه لهما، وعلى اعتبارهما ذَوَيْ قيمة عالية.

أما الأمر الأول فيتمثل في أنه ينقل عن الرازي ما ذكره وقال: ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً بالصحة ويرجيه بها، وإن كان غير واثق بذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس (١٨). لا بد أن ابن أبـي أصيبعة

وجد أهمية في هذا القول حتى ينقله لنا، وأهمية ذلك تتمثل في أن العامل النفسي على درجة كبيرة من الأهمية في العلاج. والأطباء يعلمون ذلك جيداً. وقد أدرك ابن أبي أصيبعة هذا بوعي تام. ولا شك أن المدارس الطبية الحديثة تتجه إلى اعتبار أن العامل النفسي يشكل أهمية محورية في شفاء المريض. وتصوير ابن أبي أصيبعة هنا لأهمية هذا العامل عند الرازي ربما أراد به أن يبين أن نظرية العلاج الطبي عند المسلمين منذ عهد الرازي تقوم على الجمع بين النظرية اليونانية الأبقراطية ـ الجالينوسية وهي نظرية الأخلاط، وبين نظرية العلاج عند الهنود وهي تلك النظرية التي تقوم بالدرجة الأولى على اعتبار الجانب النفسي.

أما الأمر الثاني فيبدو في أن ابن أبي أصيبعة أراد أن ينقل لنا خبرة طبية اكتسبها واحد من أكثر الأطباء المسلمين شهرة في العصور الوسطى وهو الرازي صاحب الخبرة الطويلة والممارسة العملية الناجعة، فنقل عنه «وقال: ما اجتمع الأطباء عليه وشهد به القياس وعضدته التجربة فليكن أمامك وبالضد»[19]. إن هذه العبارة التي ينقلها عن الرازي تشير إلى أن هذا الطبيب النطاسي الذي غطت شهرته عالم الأطباء في العصور الوسطى، وجد أنه على الطبيب أن يعتبر مسألتين على درجة من الأهمية في العلاج وهما:

المسألة الأولى: وتبدو لنا بوضوح من قوله: «ما اجتمع الأطباء عليه»، وذلك أن المريض حين يستعصي مرضه ويستفحل يُستدعى له مجموعة من الأطباء، وهو ما يطلق عليه بمصطلح اليوم «الكونسولتو». وهؤلاء الأطباء يعتبرون بمثابة الهيئة الاستشارية العليا التي تقرر طريقة علاج المريض وأفضل السبل لحفظ حياته. فكأن تقليد اليوم الذي يعمل وفقاً له أطباء العصر، امتداد طبيعي لذلك التقليد والمنهج الذي أرساه علماء العرب منذ زمن طويل.

المسألة الثانية: وتتضح لنا من قوله في الشق الثاني «وشهد به القياس

وعضدته التجربة»، وهذا هو ما يعرف بالجانب السريري أو الإكلينيكي، وهو على درجة كبيرة من الأهمية. ونحن نعلم أن الرازي أعظم طبيب سريري ظهر في فترة العصور الوسطى، وكتاباته تشهد على هذا، فقد سجل فيها خبرته العملية. ومن ثم فإن تآزر الجانبين معاً يشكل قوام طريقة ومنهجين جديدين، أراد ابن أبـي أصيبعة أن ينقلهما لنا ويحفظهما للأطباء على مر العصور، حين ينظرون في طريقة من تقدمهم في العلاج.

لا ريب إذن أن ابن أبـي أصيبعة على الرغم من إدراكه مسئولية قيامه بتسجيل تاريخ الطب والأطباء؛ فإنه كان أكثر إعمالاً لحاسته الطبية أيضا، إذ يكشف لنا عن مثل هذه الطرق بدقة، واستطاع أن ينتزعها من بين الأقوال المتعددة المتناثرة على صفحات الكتب. إنه لم يكن ينقل لنا مجرد الأقوال، أو الحكم المأثورة، وإنما كان ينقل لنا خلاصة عقل ومنهج. وهو حين يعرض علينا هذه الآراء إنما يدعونا لتأملها ومعرفتها حق المعرفة والوثوق منها.

وقد يكون من المناسب في هذا المجال أن نشير إلى بعض الحالات التي كان يُقَيِّم فيها مناهج العلماء وطرقهم ويقابل بينها، ومن ذلك أنه حين ذكر (ابن جميع) ومجلسه العلمـي بيّن أنه «كان لا يُقرئ إلا وكتاب الصحاح للجوهري حاضر بين يديه، ولا تمر كلمة لغة لم يعرفها حق المعرفة إلا ويكشف عنها منه، ويعتمد على ما أورده الجوهري في ذلك»[٢٠]. ويمكن مقارنة هذا بما ذهب إليه حين تحدث عن مجلس الدخوار الذي «كان لا يقرئ أحداً إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب الذي يقرؤه ذلك التلميذ، فينظر فيه ويقابل به، فإن كان في نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه. وكانت نسخة الشيخ مهذب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثرها بخطه، وكان أبداً لا يفارقه إلى جانبه مع ما يحتاج إليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة كتاب الصحاح للجوهري، والمجمل لابن فارس، وكتاب النبات لأبـي حنيفة

الدينوري. فكان إذا جاءت في الدرس كلمة لغة تحتاج إلى كشفها وتحقيقها نظرها من تلك الكتب»[٢١]. ومع أن هذه المقارنة لم ترد في «عيون الأنباء» في موضع واحد؛ فإنه قصد بها عقد المقارنات على امتداد صفحات الكتاب، ولكن كان من غير المتصور أن يعقد لنا فقرات مستقلة عن مناهج الأطباء وطرقهم في الدرس النظري أو الإكلينيكي بعيداً عن سيرتهم ومعالجاتهم، حتى لا ينقطع اتصال السياق العلمي، إذ أن طريقة الدرس ومنهج الأستاذ لا ينفصلان عن عمله الإكلينيكي السريري، وهذا ما يفطن إليه الأطباء دائما.

وهناك مستوى آخر من المقارنة نلمسه أيضاً لدى ابن أبـي أصيبعة حين كان يتحدث عن عمله وتدريبه في البيمارستان بدمشق، فالتدريب العملي يتيح لطالب الطب دائماً، أو المتخرج، أن يقارن بين طريقة عمل هذا الأستاذ وذاك، كما أن الطالب يصبح بمقدوره أيضاً أن يتبين أي الطرق أنجع وأسلم في العلاج، وأيها لا يشكل أهمية في مجال العلم. وقد أراد ابن أبـي أصيبعة أن يكون أميناً في وصفه لهذا الجانب من خلال مقارنته بين طرق ثلاث لأشهر أطباء عصره وهم: «مهذب الدين الدخوار» و «رضي الدين الرحبـي» و «عمران الإسرائيلي». يقول ابن أبـي أصيبعة إنه بعد تدريبه في البيمارستان «كان في ذلك الوقت أيضاً في البيمارستان الشيخ رضي الدين الرحبـي، وهو من أكبر الأطباء سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكراً، فكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي إلى البيمارستان، ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها. فكنت بعدما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان، وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبـي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها»[٢٢] لقد اختار ابن أبـي أصيبعة أن يلزم رضي الدين الرحبـي حتى يعرف كيفية الاستدلال على

الأمراض، والأعراض المصاحبة لكل مرض، وكيف يمكن أن يميز بين الأمراض من أعراضها، وهو ما يبدو من لفظة ابن أبي أصيبعة (فأعاين)، إذ المعاينة تعني المشاهدة والرؤية المباشرة للشيء. ويصاحب هذا أنه كان يقف على ما يوصف لكل مريض وهو ما يتضح من استخدامه تعبير «ما يصفه للمرضى»، الذي يعني الدواء الذي كان يصفه للعلاج ويكتبه حتى يمكن للمريض أن يحصل عليه من صيدلية البيمارستان، وهو ما سبق أن قرره في عبارته: «ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون بها من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها»؛ لأنه بدون الوصفة الطبية لن يتسنى للمريض أن يحصل على الدواء[٢٣]. ولا شك أن هذا التنظيم الرائع شاع في العالم الإسلامي، وسبق به الطب الإسلامي الغرب. يبدو واضحاً الآن أن ابن أبي أصيبعة كان يعاين الجانب التشخيصي، وقد آثر أن ينهله عن الرحبي؛ لأنه «من أكبر الأطباء سناً وأعظمهم قدراً». إنه صاحب خبرة طبية طويلة، وفضلاً عن ذلك فإن الرحبي صاحب الفضل الأكبر في تعليم الدخوار، أستاذ ابن أبي أصيبعة المباشر، ومعنى هذا أن ابن أبي أصيبعة يأخذ الطب عن عالم صدر. وتلك سنة علمية حميدة شاعت بين العلماء العرب والمسلمين في تلك الآونة، وافتقدناها في العصور الحديثة، وتمسك بها الغرب، وهو ما يعد انتصاراً لمنهجنا في الغرب الحديث والمعاصر[٢٤].

وكان ابن أبي أصيبعة قد قدم أيضاً وصفاً لطريقة عمران الإسرائيلي وأوصافاً لطريقة مهذب الدين الدخوار، حيث كان الطلاب يجتمعون حوله في البيمارستان حين كان يتفقد المرضى فيعلمهم ويشرح لهم الحالة المرضية التي أمامه. وابن أبي أصيبعة الذي كان من بين طلابه حين كان يتفقد البيمارستان والمرضى يقول: «ورأيته يوماً في قائمة المحمومين وقد وقفنا عند مريض، وجست الأطباء نبضه فقالوا عنده ضعف ليعطى مرقة الفروج للتقوية، فنظر إليه وقال: إن كلامه ونظر عينيه يقتضي الضعف، ثم جس نبض يده اليمنى وجس الأخرى وقال: جسوا نبض يده اليسرى. فوجدناه

قوياً. فقال: انظروا نبض يده اليمنى وكيف هو من قريب كوعه قد انفرق العرق الضارب شعبتين، فواحدة بقيت التي تجس والأخرى طلعت في أعلى الزند إلى ناحية الأصابع، فوجدناه حقاً. ثم قال: إن من الناس، وهو نادر، من يكون النبض فيه هكذا، ويشتبه على كثير من الأطباء ويعتقدون أن النبض ضعيف»[٢٥]. لذلك وجد ابن أبي أصيبعة أن المقارنة بين مناهج الأطباء الثلاثة الكبار في عصره حتمت عليه أن يستنتج أن مهذب الدين الدخوار كان أكثرهم دقة، وأحذقهم صناعة، وأجودهم علاجاً، وأكثرهم اهتماماً بالتعليم الطبي. وهذا ما جعله رائداً لمدرسة طبية كبيرة في بلاد الشام ومصر، تخرج فيها أعلام كثيرون، واستمرت تمارس مهمتها العلمية لأكثر من قرنين من الزمان، في وقت أطبق فيه الظلام على العالم الإسلامي، وجثمت فيه قوى الشر وتحالفت على هذه الأمة.

ولا يعزب عن بالنا أن ابن أبي أصيبعة استطاع أن يفيد من علمه كثيراً في تقييم طرق العلاج التي كان يتبعها ثقاة الأطباء في عصره. ولا بأس أن يعمد المرء إلى بيان أوجه الضعف أو القصور في هذه الطرق، أو أن يستحسنها أو يبين مثالبها، وتلك بطبيعة الحال مسألة نقدية بالدرجة الأولى. ويمكن لنا أن نستشهد، في هذا الصدد، ببعض ما ذهب إليه طبيبنا ومؤرخنا العربي ابن أبي أصيبعة. فقد ورد في تأريخه للشيخ رضي الدين الرحبي نص أخذه من «تاريخ الحكماء» للقفطي يبين طريقة الرحبي في الطعام وتأخيره حتى تصدق الشهوة[٢٦]. وقد أراد ابن أبي أصيبعة أن يعضد ما يذكره القفطي حول الرحبي فكان أن وضع رأيه في تقرير مفاده: (أقول ومما يناسب هذا المعنى المتقدم في أنه لا ينبغي أن يؤكل الطعام إلا بشهوة صادقة للأكل، أنني كنت يوماً أقرأ عليه في شيء من كلام الرازي في ترتيب الأغذية، وقد ذكر الرازي أن الإنسان ينبغي له أن يأكل في اليوم مرتين، وفي اليوم الثاني مرة واحدة. فقال لي: لا تسمع هذا، والذي ينبغي أن تعتمد عليه أنك تأكل وقت تكون الشهوة للأكل صادقة في أي وقت، سواء أكان مرتين

فـي النهار أو مرة: في ليل أو نهار، فالأكل عند الشهوة الصادقة للأكل هو الذي ينفع، وإذا لم يكن كذلك فإنه مضرة للبدن، وصدق في قوله [٢٧]. ما الذي يطلعنا عليه هذا النص الذي قدمه ابن أبـي أصيبعة؟.

إن أول ما نلاحظه من خلال قراءة هذا النص أن ابن أبـي أصيبعة يقابل بين طريقة الرازي وطريقة رضي الدين الرحبـي، وقد قدم له الرحبـي المبرر الذي يؤيد رأيه حين قال له: «والذي ينبغي أن تعتمد عليه..». وقد اقتنع ابن أبـي أصيبعة بحجة أستاذه ووجدها معقولة مقبولة من الناحية الطبية، وهو ما بدا في قوله: «وصدق في قوله»، مما يدل على أفضلية رأي الرحبـي على رأي الرازيّ الطبيب. وقد أبـى أسامة عانوتي أن يترك هذه الواقعة بدون أن يقدم لها التفسير العلمي المناسب، فذهب في تفسيره إلى أن «الإحساس الذي يساور المرء بالرغبة في الأكل (الجوع) تصاحبه وفرة في إفراز المواد الهاضمة (Gastric Juices/ Sucgrastrique) وتهيؤ من أعضاء الجسم لتقبل الغذاء وتمثيله، بينما هو ضرر وثقل على هذه الأعضاء، إن لم تكن ثمة شهوة للأكل؛ لأن في الأكل، إذ ذاك، احتشاداً غذائياً لا قدرة للأعضاء، في تلك الساعة، على مواجهته» [٢٨]. ترى هل أدرك ابن أبـي أصيبعة إذن صواب رأي الرحبـي نتيجة لممارساته الطبية داخل البيمارستان الكبير، أم لقناعة منه بأن الرحبـي مقدم في صناعة الطب ومن أكابر أهلها، وهو أستاذ الدخوار الذي عليه تعلم ابن أبـي أصيبعة؟ إن هذا التساؤل يفتح الباب على مصراعيه لمناقشة الحالات التي عاينها الرجل في البيمارستان ونقدها، مما أكسبه خبرة جعلته يؤيد رأي الرحبـي، وهو ما يبدو من عبارته «وصدق في قوله».

ثالثاً ـ طابع المديح في كتاب عيون الأنباء:

إن مؤلفنا وطبيبنا ومؤرخنا العربـي ابن أبـي أصيبعة شأنه شأن غيره من الكتاب والمؤرخين الذين يعايشون الأحداث فينفعلون بها، ويعرفون الرجال

فيتأثرون بهم وبطرقهم، وتلك نقطة هامة ينبغي أن نسجلها لهذا المؤرخ الشامخ الذي لم تَخْلُ كتاباته من الطرافة.

والجدير بالذكر أن صيغ المديح عند ابن أبي أصيبعة قد ارتبطت بالتأريخ لأعمال الأطباء وأفعالهم وفضائلهم، وهو ما نجده في كثير من الحالات، فقد ذكر عن الرحبي أنه «من الأكابر في صناعة الطب، والمتعينين من أهلها، وله القدم والاشتهار والذكر الشائع عند الخواص والعوام»[٢٥]. نلاحظ هنا أن المديح قد انصب على جوانب معينة من مكانة الرجل العلمية وشخصيته، فهو في الطب بين معاصريه «من الأكابر» و «المتعينين». وهو من حيث المعرفة عند الأطباء خاصة وهم مجتمعه العلمي، وعند الناس أو الجمهور وهم الذين يعالَجون وينتفعون به، «له القدم والاشتهار والذكر الشائع». وهذا يعني أنه لم يكن طبيباً مجهولاً او كأي طبيب آخر لم يؤثر في الحياة العلمية والاجتماعية لعصره. ويختلف عن هذا ما ذكره من مديح في شأن كمال الدين الحمصي الذي قال عنه «وكان كثير الخير وافر المروءة، كريم النفس محباً لاصطناع المعروف»[٢٦]. إن (الخير) و (المروءة) و (اصطناع المعروف) بالنسبة لطبيب يتمثل في أن يمد يد العون للمرضى غير القادرين على دفع أجرة الطبيب أو على دفع تكاليف العلاج. إن هذا هو الخير والمعروف، وهذا من أدق صفات هذا الطبيب الذي تفرض عليه أخلاقيات مهنته أن يقدم كل ما يستطيع من أجل خدمة وشفاء المرضى الذين تعوزهم الحاجة.

ومن جانب آخر انصبت عبارات المديح على معارف الرجال ومنزلتهم العلمية، ومن ذلك ما ذكره عن أستاذه مهذب الدين الدخوار علم أعلام الطب في عصره، ومؤسس المدرسة الدخوارية العظيمة التي كان لها أكبر الأثر في تطور علم الطب في العالم الإسلامي وقتئذ، حيث يقول عنه إنه «أوحد عصره، وفريد دهره، وعلامة زمانه، وإليه انتهت صناعة الطب ومعرفتها على

ما ينبغي، وتحقيق كلياتها وجزئياتها. ولم يكن في اجتهاده من يجاريه، ولا في علمه من يماثله[٣١]. لم يكن هذا الوصف من جانب ابن أبـي أصيبعة لأستاذه الدخوار لمجرد مدح أستاذه وشيخه، وإنما كل كلمة اختارها في هذا الوصف جاءت لتعبر عن شيء تفرد به هذا الشيخ العظيم عن غيره ممن أرخ لسيرتهم ابن أبـي أصيبعة. والأوصاف التي ذكرها عن الدخوار إنما استمدت أصلاً من كون الدخوار قد تحققت له كليات الطب وجزئياتها، وهذا يعني تقدمه على أقرانه من المعاصرين. وهذه القضية بالإضافة إلى النتيجة الأخرى «لم يكن في اجتهاده من يجاريه ولا في علمه من يماثله»، يشكلان قولاً يقينياً حول علم الدخوار في الطب ومنزلته بين أقرانه من أطباء العصر. وابن أبـي أصيبعة في هذا الصدد يكون قد أمدنا بتقييم هام حول هذا العلم.

ولذا فإن ما اعتقده بعض الكتاب مثل أسامة عانوتي ـ الذي كتب أفضل سيرة بالعربية عن ابن أبـي أصيبعة حتى الآن في بحثه بعنوان «ابن أبـي أصيبعة: تعريف وتقويم» الذي جاء متفرداً في بابه ـ الذي يقول: «أما تقديمه في سيره فمختصر، حافل بالمجاملة والتقريظ، ليس بذي شأن كبير»[٣٢]. هذا القول جاء ولا شك تحت تأثير ما كتبه ماكس مايرهوف عن ابن أبـي أصيبعة في دائرة المعارف الإسلامية. لكننا نختلف معه في هذا، إذ المجاملة والتقريظ عند ابن أبـي أصيبعة، ومن خلال بعض الأمثلة القليلة التي أوردناها والتي يمكن ذكر عدد كبير منها، إنما يدل بوضوح على علو كعب الرجل في اختيار الكلمات وخلعها على من كتب سيرهم وفقاً لمنزلتهم.

الـفصـل الثالث

سلبيات منهج ابن أبـي أصيبعة
في تدوين عيون الأنباء

١ ـ طغيان السرد التاريخي الذاتي.

٢ ـ الوقوع في بعض الأخطاء التاريخية

لكن كتاب «عيون الأنباء» الذي يعد درة عربية قيمة، لا يسلم من النقد في كثير من المواضع، فقد أدى المنهج الذي طبقه ابن أبـي أصيبعة إلى سلبيات منها:

أولاً ــ طغيان السرد التاريخي الذاتي:

إن كتاب «عيون الأنباء» الذي عرض فيه ابن أبـي أصيبعة سيرة أطباء عصره ومؤلفاتهم وإنجازاتهم العلمية، هذا الكتاب يعد أيضاً بكل المقاييس العلمية كتاب سيرة ذاتية، وتلك مسألة على درجة من الأهمية. ولكن بأي معنى يمكن النظر إلى «عيون الأنباء» على أنه كتاب سيرة للرجل؟ هذا ما ينبغي علينا أن نتوجه إلى الكشف عنه؟.

لم يفرد ابن أبـي أصيبعة موضعاً خاصاً ومحدداً بعنوان (سيرتي)، أو (سيرتي الذاتية)؛ ولكنه استطاع بقوة واقتدار وذكاء أيضاً أن يبث سيرته بين ثنايا سير الرحال الذين عرض لهم، وحتى أولئك الذين كانوا قد رحلوا قبله بقرون ولم يلتق بهم، أمكنه أن يزودنا بجوانب من سيرته في أثناء الحديث عنهم. ولنا في ذلك أمثلة كثيرة يزخر بها (عيون الأنباء).

على سبيل المثال حين عرض لسيرة «سيف الدين الآمدي» التي جاءت مختصرة إلى حد كبيّر، يقول ابن أبـي أصيبعة: «وكان نادراً أن يقرئ أحداً شيئاً من العلوم الحكمية، وكنت اجتمعت به واشتغلت عليه في كتاب رموز الكنوز من تصنيفه، وذلك لمودة أكيدة كانت بينه وبين أبـي، وأول اجتماعي به دخلت أنا وأبـي إليه إلى داره، وكان ساكناً بدمشق في قاعة عند المدرسة

العادلية، فلما جلسنا عنده بعد السلام، وتفضل بحسن التودد والكلام نظر وقال بهذا اللفظ: ما رأيت ولداً أشبه بوالد منكما (وأنشدني) الصاحب فخر القضاة بن بصاقة لنفسه وقد تشفع به العماد بن السلماس إلى سيف الدين الآمدي بأن يشتغل عليه»[٣٣].

كذلك فإنه أرخ لجانب من حياته وتطورها حين عرض لسيرة سديد الدين ابن رقيقة حيث يقول: «كان لي أيضاً في ذلك الوقت (أي أيام الملك الأشرف) مقرر جامكية وجراية لمعالجة المرضى في هذا البيمارستان (أي البيمارستان الكبير)، وتصاحبنا مدة فوجدت من كمال مروءته وشرف أرومته وغزارة علمه وحسن تأتيه في معرفة الأمراض ومداواتها ما يفوق الوصف. ولم يزل بدمشق وهو يشتغل بصناعة الطب إلى أن توفي رحمه الله في سنة خمس وثلاثين وستمائة، وكنت أنا قد انتقلت إلى صرخد في خدمة صاحبها الأمير عز الدين المعظمي في شهر ربيع الأول سنة أربع وثلاثين وستمائة»[٣٤].

وعندما عرض ابن أبي أصيبعة لسيرة «صدقة السامري» بث طرفاً من سيرته الخاصة بقوله: «ولما جاء من بعلبك وكنت مع أبي لنسلم عليه فوجدته شيخاً حسناً فصيح الكلام لطيف المعاني»[٣٥]. وقد زخرت أيضاً سيرة الصاحب أمين الدولة بجوانب من سيرة ابن أبي أصيبعة، فقد علم الصاحب أمين الدولة أن له كتاباً في طبقات الأطباء، يقول ابن أبي أصيبعة «ولما كان رحمه الله بدمشق، وهو في دست وزارته في أيام الملك الصالح إسماعيل. وكان أبي صديقه وبينهما مودة فقال له يوماً سديد الدين بلغني أن ابنك قد صنف كتاباً في طبقات الأطباء ما سبق إليه، وجماعة الأطباء الذين يأتون إليّ شاكرين منه. وهذا الكتاب جليل القدر، وقد اجتمع عندي في خزانتي أكثر من عشرين ألف مجلد ما فيها شيء من هذا الفن، وأشتهي منك أن تبعث إليه يكتب لي نسخة من هذا الكتاب. وكنت يومئذ بصرخد عند

مالكها الأمير عز الدين أيبك المعظمي فامتثل أمره. ولما وصلني كتاب أبي أتيت إلى دمشق واستصحبت معي مسودات الكتاب واستدعيت الشريف الناسخ وهو شمس الدين محمد الحسيني، وكان كثيراً ينسخ لنا، وخطه منسوب في نهاية الجودة، وهو فاضل في العربية فأخليت له موضعاً عندنا. وكتب الكتاب في مدة يسيرة في تقطيع ربع البغدادي أربعة أجزاء. ولما تجلدت عملت قصيدة مديح في الصاحب أمين الدولة، وبعثت بالجميع إليه مع قاضي القضاة بدمشق رفيع الدين الجيلي...»[٣٦]. لا بد لنا إذن أن نلاحظ بعض العبارات الهامة التي يقررها ابن أبي أصيبعة في هذا النص. ما هي؟ وما طبيعتها؟.

الواقع أن ابن أبي أصيبعة يحتفي بكتابه بصورة طيبة على لسان الصاحب أمين الدولة. لقد أدرك ابن أبي أصيبعة أن «عيون الأنباء» الذي سجله يستحق الثناء، على الرغم من أنه كتابه، ومع أننا لا نشك في أن العبارات التي ذكرها وردت على لسان الصاحب أمين الدولة؛ فإنها في الوقت نفسه تكشف اهتمام ابن أبي أصيبعة بنسبة أجل الأوصاف العلمية والتاريخية أيضاً إلى كتابه، وهو ما يتضح لنا في عبارة «صنف كتاباً في طبقات الأطباء ما سبق إليه»، وعبارة «... في خزانتي أكثر من عشرين ألف مجلد ما فيها شيء من هذا الفن». إن هاتين العبارتين معاً تقرران أن كتاب «عيون الأنباء» جاء فريداً في بابه، وأن العبارة الأولى وإن كانت تقرر أنه «ما سبق إليه»، إلا أن هذه العبارة؛ بالإضافة إلى آخر كلمات العبارة الثانية «... ما فيها شيء من هذا الفن» تكشفان معاً عن أن ابن أبي أصيبعة أراد أن ينسب مكانة تاريخية رفيعة لكتابه، وهو يعلم أن ابن جلجل قبله بثلاثة قرون من الزمان دون «طبقات الأطباء»، وأن كتاب ابن أبي أصيبعة جاء ليتحدث عن «عيون الأنباء» في «طبقات الأطباء»، فهل أراد ابن أبي أصيبعة إذن أن يقول لنا إن كتابه أكثر قيمة وأعلى درجة من كتاب سلفه ابن جلجل؟ أم أنه أراد أن يوضح لنا أنه أول كتاب في بابه، وهو ما نستبعده على الرغم من وجود عبارة «ما سبق إليه»؛ هذا ما

لا تعرف حقيقته إلا استنتاجاً، لأن النص سكت عن تفسير هذه المسألة.

أضف إلى هذا ما يقوله ابن أبـي أصيبعة على لسان الصاحب أمين الدولة الذي يذكر «وجماعة الأطباء الذين يأتون إلـيّ شاكرين منه»، هذه العبارة تعني أن أطباء العصر قرأوا كتاب «عيون الأنباء» ووقفوا على أهميته، ووجدوا أنه ينطوي على إضافات جديدة، وهم في هذا يُسدون الشكر إلى ابن أبـي أصيبعة الذي أردف هذا بالعبارة «وهذا الكتَاب جليل القدر»؛ فكأن جماعة الأطباء يعترفون إذن بعلو كعب ابن أبـي أصيبعة في هذا الفن، وبقدر كتاب «عيون الأنباء» بين كتابات الطب في عصره أيضاً.

نلاحظ أيضاً أنه مع أن ابن أبـي أصيبعة لم يكتب الكثير عن سيرة عز الدين بن السويدي؛ فإنه استطاع أن يقتحم تلك السيرة وينفذ إليها بكل سهولة ويسر، إذ يقول عنه: «وكان أبوه رحمه الله تاجراً من السويداء بحوران، حسن الأخلاق، طيب الأعراق، لطيف المقال، جميل الأفعال. وكان صديقاً لأبـي وبينهما مودة أكيدة وصحبة حميدة. وكنت أنا وعز الدين أيضاً في المكتب عند الشيخ أبـي بكر الصقلي رحمه الله، فالمودة بيننا من القدم باقية على طول الزمان، نامية في كل حين وأوان»(٣٧).

بطبيعة الحال ليس هدفنا حصر كل الأمثلة التي يمكن أن نلتقطها من «عيون الأنباء»؛ لكن الأمر الجدير بالاعتبار في هذا الصدد أن صاحب «العيون» وجد المناسبات، أو أوجدها لكي يبث سيرته الشخصية في ثنايا سير العلماء. وربما كانت هذه المسألة على درجة من الأهمية، إذ نجد العلماء في عصرنا الراهن يدونون سيرتهم الخاصة فيما يطلق عليه السيرة الذاتية Autobiography حيث يروي المفكر طرفاً من حياته ونشأته والبيئة التي تعلم فيها ونشأ، وتطوره الفكري والعقلي وإسهاماته وإنجازاته أيضاً، وقد انطوت جوانب كثيرة مما رواه ابن أبـي أصيبعة على مثل هذه الجوانب، ولكنه لم يفرد لها بطبيعة الحال موضعاً محدداً، وإنما آثر الرجل أن تأتي هذه

السيرة متغلغلة في ثنايا سير الآخرين، وكأنه يعبر عن التلاحم الفكري بينه وبين رجال عصره.

ومع أن طابع السرد هذا قد أدى إلى فقدان الوحدة والتماسك داخل الموضوع في كثير من الحالات؛ فإنه قد أدى وظيفة فكرية هامة تمثلت في تصوير السياق الثقافي والاجتماعي الذي ساد عصر الرجل. وربما احتاجت مثل هذه المواضع تحليلات كثيرة في ضوء علاقات النصوص التي حشدها ابن أبي أصيبعة في مواضع كثيرة من كتابه.

ثانياً ــ الوقوع في بعض الأخطاء التاريخية:

تشترك بعض الكتابات القديمة في أخطاء تاريخية كثيرة، ولا يشذ كتاب «عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة عن هذا. وربما كان من الممكن لنا أن نلتقط بعض الأخطاء التي وقعت في «عيون الأنباء»، كما وقعت في كثير من الكتابات الأخرى.

يذكر ابن أبي أصيبعة من خلال عرضه لسيرة الطبيب يوحنا بن ماسويه نصاً اقتبسه عن سليمان بن حسان، المعروف بابن جلجل، يقول فيه: «وقال سليمان بن حسان: كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانياً قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة، مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون، ووضعه أميناً على الترجمة. وخدم هارون والأمين والمأمون، وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل»[٣٨].

والمعروف أن القفطي ذكر المعلومة نفسها، ولا شك أن الخطأ واضح وظاهر في كلام ابن أبي أصيبعة والقفطي، لقد أخذا عن مصدر واحد وهو ابن جلجل، الذي كان أول من أخطأ في هذه المعلومة التاريخية. إن الذي طب للرشيد هو ماسويه (الأب) أبو يوحنا، وليس يوحنا الذي عاش في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع الميلادي، وكان يعمل صيدلانياً في

بيمارستان جنديسابور.

كذلك فإن الواقعة التاريخية الخاصة بفتح عمورية وأنقرة لم تحدث في عصر الرشيد، وإنما كانت وقت حكم المعتصم بالله عام ٢٢٣ هـ. وهذا ما لم يتنبه إليه مؤرخنا العربـي ابن أبـي أصيبعة الذي دوّن لنا رائعته «عيون الأنباء».

ولا يخرج عن هذا أيضاً ما كتبه ابن أبـي أصيبعة عن حنين بن إسحاق، خاصة في التعرض لسيرة حياته. لقد نقل ابن أبـي أصيبعة أيضاً عن ابن جلجل الذي كتب في «طبقات الأطباء» عن حنين بن إسحاق «ونهض من بغداد إلى أرض فارس، وكان الخليل بن أحمد النحوي، رحمه الله، بأرض فارس، فلزمه، حتى برع في لسان العرب. وأدخل كتاب العين بغداد»[٣٩]. هذه الفقرة التي أوردها ابن جلجل في مؤلفه انتقلت إلى عدد كبير من مؤرخي التراث الإسلامي بدون نقد أو تحقيق، ويمكن أن نتبين أن بعض الكتابات الهامة في التراث اعتمدت على هذه الفقرة وأخذت عنها، ومن بين هذه الكتابات، كتاب القفطي «تاريخ الحكماء» الذي ذكر فيه عن حنين بن إسحاق «ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل بن أحمد حتى برع في اللسان العربـي وأدخل كتاب العين بغداد»[٤٠]. وكذلك يذكر ابن أبـي أصيبعة في «عيون الأنباء» «وكان حنين بن إسحاق فصيحاً لسناً بارعاً شاعراً، وأقام مدة في البصرة، وكان شيخه في العربية الخليل بن أحمد»[٤١].

وإلى مثل هذا المعنى ذهب ابن العبري في «تاريخ مختصر الدول» حيث يقول: «ونهض من بغداد إلى أرض فارس ودخل البصرة ولزم الخليل ابن أحمد حتى برع في اللسان العربـي ثم رجع إلى بغداد»[٤٢].

لقد آثر القفطي وابن أبـي أصيبعة وابن العبري النقل عن ابن جلجل وكتاب «طبقات الأطباء» الذي دونه، على حين أنها لم تنقل عن ابن النديم الذي لم يقع في مثل هذا الخطأ، على الرغم من أن ابن النديم معاصر لابن

جلجل، ودوّن كتاب الفهرست في العام الذي دوّن فيه ابن جلجل كتاب «طبقات الأطباء». إن ابن النديم يذكر الفقرة التالية عن الخليل بن أحمد «وهو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد؛ قال ابن أبـي خيثمة أحمد أبو الخليل أول من سمي في الإسلام بأحمد وأصله من الأزد من فراهيد... وكان شاعراً مقلاً وتوفي الخليل بالبصرة سنة سبعين ومائة وعمره أربع وسبعون سنة وله من الكتب المصنفة كتاب العين»[٤٣].

ويوافق هذا ما ذكره صاعد الأندلسي في القرن الخامس الهجري، إذ كتب في «طبقات الأمم» عن كتب التراجم التي أوردت لخبر تعلم حنين على الخليل، أنه «وتعلم العربية في البصرة من (الخليل) بن أحمد وهو أدخل كتاب العين بغداد. ولم يكن الخليل بن أحمد بأرض فارس، وإنما كان بالبصرة، وتوفي سنة سبع ومائتين، وبين وفاته ووفاة حنين المذكور تسعون سنة فانظر!»[٤٤].

من الواضح من نص صاعد الأندلسي أنه يتعجب من نص ابن جلجل الذي دُوِّنَ قبله بقرن من الزمان ويتهكم عليه، ولا بد أنه قرأه وفهمه لأنه يذكر «ولم يكن الخليل بأرض فارس»، وقد ذكر ابن جلجل في ترجمته «وكان الخليل بن أحمد النحوي رحمه الله بأرض فارس» ومن المعروف أن ابن جلجل هو أقدم مصدر من كتب التراجم يذكر لنا هذا النص الغريب مما يدل بصورة واضحة على عدم إلمامه بثقافة العصر.

لا شك إذن أن ابن أبـي أصيبعة وقع في بعض الأخطاء نتيجة لعدم تدقيق وتحليل ونقد بعض النصوص التي نقلها من الكتابات القديمة. وتلك سمة تجمع بينه وبين بعض كتاب عصره، كما وقد تسربت هذه الأخطاء أيضاً إلى كثير من الكتابات الحديثة والمعاصرة حول تاريخنا العربـي والإسلامي. ومن ثم لا ينبغي الثقة التامة بكل ما نقرؤه، بل لا بد من إعمال التحليل والنقد، والوقوف على التواريخ الصحيحة للوقائع أو الأحداث التي وقعت

في الأزمنة الماضية، وتلك أبسط الخصائص التي يجب أن تميز كتابة المؤرخ في أي عصر من العصور.

والواقع أن بعض هذه الأخطاء التاريخية امتدت أيضاً إلى كتّاب حديثين مثل بروكلمان، ودي لاسي أوليري، وعمر فروخ. فقد ذهب بروكلمان في تاريخ الأدب العربي إلى أن حنين بن إسحاق «درس في البصرة على الخليل وأدخل كتاب العين بغداد»(٤٥). كما ذكر دي لاسي أوليري في مؤلفه مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب الذي ترجم في ترجمتين بيروتية ومصرية: «وذهب حنين لدى طرده من المدرسة إلى أرض الإغريق، وحصل هنالك على معرفة تامة باللغة الإغريقية.. وعاد في الوقت المناسب، واستقر حيناً في البصرة، حيث تعلم على يد الخليل بن أحمد»(٤٦). وقد ذكر عمر فروخ الأمر نفسه، إذ يقرر في الطبعات المتتالية لتاريخ العلوم عند العرب «من أقدم النقلة وأشهرهم وأقدرهم حنيَن بن إسحاق، ولد في الحيرة سنة ١٩٤ هـ (٨١٠ م)، وتلقى شيئاً من الطب على يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ) ثم تابع درس الطب في بلاد الروم، بعدئذ زار الإسكندرية وفارس ودرس فيهما شيئاً من الفلسفة والطب. ثم عاد إلى البصرة وتبحر في درس اللغة العربية على الخليل بن أحمد (ت ١٧٤ هـ)»(٤٧).

إن هذه الكتابات تشترك في الخطأ نفسه، وهناك كتابات أخرى كثيرة وقعت في المأزق نفسه. وقد جاء هذا الخطأ عن ابن جلجل ومنه انتقل إلى القفطي صاحب تاريخ الحكماء وعنه أخذت الكتابات التالية. وهذا يجعلنا مرة أخرى ننبه إلى أن دراسة التراث العربي الإسلامي تحتاج إلى تدقيق وروية، كما تحتاج إلى تحقيق الوقائع والحوادث التاريخية التي يزخر بها التاريخ الإسلامي. فهل من مجيب؟!

الفصل الرابع

نقد وتقييم

ينبغي علينا إذن أن نقرر السمات أو الخصائص العامة التي ميزت منهج ابن أبـي أصيبعة في تدوين رائعته «عيون الأنباء». وفي هذا الصدد يعدُّ منهج ابن أبـي أصيبعة محققاً للشروط والقواعد الصحيحة للكتابة العلمية.

أولاً: يشير منهج ابن أبـي أصيبعة إلى إعمال جيد للنقاش العلمي، إذ أنه في كثير من الحالات لم يكن يقبل الآراء دون مناقشتها وامتحانها بحس الناقد والطبيب العالم والمؤرخ مما أدىٰ إلى بيان التناقضات والأخطاء التاريخية أيضاً في مواضع كثيرة. والدليل على ذلك ما يذهب إليه في كثير من مواضع كتابه حين يذكر بعد أن يقدم لواقعة تاريخية كثيرة الأحداث بقوله (أقول)... وهو في هذا يقارن في صبر بين الكتابات المختلفة.

ثانياً: إنه مع وجود بعض الأخطاء التاريخية التي وقع فيها ابن أبـي أصيبعة، وجدنا أسلوبه يتسم بالأمانة العلمية، إذ عمد الرجل إلى نسبة الآراء إلى قائليها، وهو في هذا قد اتبع أسلوب رواة الحديث، إذ ظل يتسلسل بالرواة حتى يصل إلى الراوي الأصلي للرواية. وهذه المسألة تعني بطبيعة الحال أن ابن أبـي أصيبعة كان على علم جيد بكيفية الرواية وكيفية إسناد الروايات إلى قائليها. وطغت هذه الخاصية على كثير من المواضع في كتاب «عيون الأنباء» ليبرهن على قدرة الرجل على الحفظ ودقته في التحري. والواقع أن العلماء كانوا دائماً يشيرون إلى هذه المسألة في صدر كتاباتهم، مثال ذلك، ما ذكره ابن البيطار في كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية حين يقول: «وأسندت في جميع ذلك الأقوال إلى قائليها، وعرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها، واختصصت بما تم لي به الاستبداد وصح لي القول فيه ووضح عندي عليه الاعتماد»[٤٨] لم يكن ابن أبـي أصيبعة في حاجة إلى هذا

لأنه أعمل التطبيق مباشرة، وكشف عن مصادره خلال الحديث.

ثالثاً: استخدم ابن أبي أصيبعة عبارات معينة تدل على عدم التحري تماماً، وهو في هذا يشارك علماء عصره ومؤرخيه هذه الخاصية. لقد عهدنا الكتاب والعلماء يفضلون هذا الأسلوب كثيراً، حيث يستخدم العالم عبارات معينة، لا تدل على أنه يقطع بما يقول، وإنما تدل على أنه يضع ما يقول بين قوسين، إلى أن يتم التحري عن صدق المروي، أو يشاهد الأمر عياناً. ومن الأمثلة الدالة على ذلك كتاب ابن أبي أصيبعة. لقد فطن صاحب «عيون الأنباء» إلى أهمية إثبات هذا الأمر، فنجده في الأمور التي لم يعاينها أو يشاهدها بنفسه يستخدم العبارات من مثل (حدثني بعض الأطباء) أو (حدثني أهالي حلب). وإذا كان نقل عن بعض الكتابات القديمة، أو استمد معلوماته من مصدر سابق عليه تناول الموضوع بصورة أو بأخرى، ذكر ذلك أيضاً وقال: (نقلت من بعض التواريخ)، أو قال: (وجدت في بعض الكتب)، وهكذا[٤٩].

رابعاً: أمر آخر اتسم به منهج ابن أبي أصيبعة في رواية تاريخ الخبر. لقد ذهب فرانز روزنتال في كتابه: A History of Muslim Historiography الذي نقله إلى العربية في ترجمة رائعة الدكتور صالح أحمد العلي بعنوان: (علم التاريخ عند المسلمين)، ذهب يقول: «إن أقدم صور علم التاريخ الإسلامي هو الوصف الشامل لحادثة واحدة، لا يزيد طولها عادة على بضع صفحات، وهي استمرار مباشر لقصص الأيام. وكثيراً ما كانت كلمة (خبر) في سياق الكتب التاريخية الكثيرة، تستعمل عنواناً، بجانب (ذكر) أو أحياناً بجانب (أمر) أو (حديث)، وكل هذه الكلمات تستعمل بالطريقة نفسها. ومنذ القرن العاشر وما بعده أصبحت رواية تاريخ (الخبر) يقدم لها أحياناً بعبارة (وكان السبب) بعد أن يذكر ملخص الخبر المعني، ويؤكد على صفة الخبر كوحدة قائمة بذاتها، بسلسلة الرواة التي تسبق كل

خبر، ولا تحذف إلا للاختصار أو لإزالة مظاهر التقعر العلمي»[٥٠]. إن ما يقرره روزنتال في هذا الصدد لا ينطبق على حالة ابن أبـي أصيبعة، وقد لا ينطبق أيضاً على كتابات أخرى كثيرة في التاريخ. والدليل على ذلك أن ابن أبـي أصيبعة عرف طريقة رواية الخبر، وعرف كيف يمكن أن يقدم لنا صياغة منطقية دقيقة، وندلل على هذا بفقرة نختارها للتدليل على صحة ما نقول.

حين تحدث ابن أبـي أصيبعة عن أبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبـي الصلت قال: «وأتى أبو الصلت من الأندلس إلى ديار مصر وأقام بالقاهرة مدة. ثم عاد بعد ذلك إلى الأندلس. وكان دخول أبـي الصلت إلى مصر في حدود سنة عشر وخمسمائة. ولما كان في الإسكندرية حبس بها. وحدثني الشيخ سديد الدين المنطقي في القاهرة سنة اثنتين وثلاثين وستمائة: أن أبا الصلت أمية بن عبد العزيز كان سبب حبسه في الإسكندرية أن مركباً كان قد وصل إليها، وهو موقر بالنحاس فغرق قريباً منها، ولم تكن لهم حيلة تخلصه لطول المسافة في عمق البحر ففكر أبو الصلت في أمره وأجال النظر في هذا المعنى حتى تلخص له فيه رأي، واجتمع بالأفضل ابن أمير الجيوش ملك الإسكندرية ووجد أنه قادر إنْ تهيأ له جميع ما يحتاج إليه من الآلات أن يرفع المركب من قعر البحر، ويجعله على وجه الماء مع ما فيه من الثقل فتعجب من قوله، وفرح به، وسأله أن يفعل ذلك. ثم أتاه على جميع ما يطلبه من الآلات وغرم عليها جملة من المال. ولما تهيأت وضعها في مركب عظيم على موازاة المركب الذي غرق، وأرسى إليه حبالاً مبرومة من الإبريسم، وأمر قوماً لهم خبرة في البحر أن يغوصوا ويوثقوا ربط الحبال بالمركب الغارق، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية لرفع الأثقال في المركب الذي هم فيه. وأمر الجماعة بما يفعلونه من تلك الآلات. ولم يزل شأنهم في ذلك والحبال الإبريسم ترتفع أولاً فأولاً وتنطوي على دواليب بين أيديهم حتى بان لهم المركب الذي كان قد غرق، وارتفع إلى قريب من سطح الماء، ثم عند ذلك انقطعت الحبال الإبريسم، وهبط المركب راجعاً إلى قعر

البحر. ولقد تلطف أبو الصلت جداً في صنعه، وفي التحيل إلى رفع المركب، إلا أن القدر لم يساعده، وحنق عليه الملك لما غرمه من الآلات وكونها مرت ضائعة، وأمر بحبسه وأن يستوجب ذلك[٥١].

إن مثل هذه الرواية من جانب ابن أبـي أُصيبعة يشير إلى دقة صياغته لحجة منطقية قوية جاءت النتيجة فيها أولاً، ثم جاء سرد المقدمات التي تشكل الحجة، أو تدل عليها. وهذا يعني أن الرجل كان مجيداً لفن المنطق وصياغة الحجج، وهو ما يبرهن على أن فن صياغة الخبر خلافاً لما يذهب إليه فرانز روزنتال تمت أصوله وقواعده قبل القرن العاشر بفترة طويلة، والدليل على ذلك أن «عيون الأنباء» يحفل بعدد غير قليل من هذه الأمثلة بخلاف المثال الذي ذكرناه. ألم يلاحظ روزنتال أن علم الحديث بدأ مبكراً في العالم الإسلامي، وأن قواعد هذا العلم تسربت إلى المؤرخين الذين استفادوا بصور كثيرة من علماء الحديث؟ لا شك أن الحاجة ماسة الآن أكثر من ذي قبل لضرورة مراجعة كل آراء المستشرقين عن تراثنا وتاريخنا، فقد نفثوا السموم في ثنايا عباراتهم للتقليل من جهد الرجال، وللنيل من العقل العربـي الإسلامي.

هوامش القسم الأول

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢٨.

(٢) ذكره بروكلمان (عبد الرحمن). انظر تعليقنا في نهاية البحث.

(٣) لم يرد ذكره في: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ٦، ص ٢٧٧. حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ١٤١٠. بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ج ٤، ص ١١٢.

(٤) يبدو أن بعض المؤرخين قد التبس عليهم الأمر واعتقد أن الدخوار اسم الرجل، فقد ذكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة (المهذب ابن الدخوار الطبيب) ص ٢٧٧. وكذلك بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ج ٤، ص ١١٢. ونقول، الدخوار: صفة فاعلية مكونة من جزئين هما: دخ (يضم الأول)، وتعني الشهاب أو النجم الساطع في السماء. والمقطع (وار) أداة تشبيه مثل يشبه. ومن ثم فإن الكلمة تعني الشهابي، أو هو مثل النجم الساطع في السماء.

راجع: محمد بن حسين بن خلف تبريزي، برهان قاطع، ج ١ ص ٥١٢، تحقيق محمد سعيدي، الناشر خرد ـ بنما ١٢٨٦ هجري شمسي. ويرجع الفضل في معرفتي لهذا المعنى للزميلين الفاضلين الدكتور أحمد شوقي والدكتور حسين عبد الباسط.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٣٠. ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٧. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣١٥.

(٦) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٣١.

(٧) محمود الحاج قاسم، الطب عند العرب والمسلمين، ص ٢٩٩.

(٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢٨.

(٩) المرجع السابق، ص ٧٢٨.

(١٠) المرجع السابق، ص ٧٢٨.

(١١) المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(١٢) المرجع السابق، ص ٧٢٩.

(١٣) المرجع السابق، ص ٧٣٠.

(١٤) المرجع السابق، ص ٧٣١.

(١٥) المرجع السابق، ص ٧٣١.

(١٦) المرجع السابق، ص ٧٣١.

(١٧) المرجع السابق، ص ٧٣١.

(١٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٨٥.

(١٩) ابن أبـي أصيبعة، المرجع السابق، ص ٧٧٣.

(٢٠) المرجع السابق، ص ٧٣٣.

(٢١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ١٣٠.

(٢٢) ابن أبـي أصيبعة، المرجع السابق، ص ٧٣٣.

(٢٣) ابن شاكر الكتبـي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣١٦. وأيضاً: ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٨.

(٢٤) أجمعت المصادر التي بين أيدينا على أن وفاته كانت في عام ٦٢٨ هـ وذهب ابن شاكر الكتبـي في فوات الوفيات، إلى أن وفاته كانت في عام ٦٢٧ هـ.

(٢٥) ابن خروف (ت ٦٠٦هـ) علي بن محمد بن يوسف أبو الحسن ابن خروف الأندلسي النحوي، شرح سيبويه، وقدمه إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار، وشرح جمل الزجاجي، وكان ينتقل إلى البلاد، ولم يتزوج ولا تسرى، وذلك لعلة تغلب على طباع الأراذل، وقد تغير عقله في آخر عمره، فكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس، توفي عن خمس وثمانين سنة.

(٢٦) روى ابن شاكر الكتبـي أن الدخوار كان أعرج.

(٢٧) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٦٩٧.

(٢٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢١٦.

(٢٩) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٥٥.

(٣٠) المرجع السابق، ج ٥، ص ٥٥.

(٣١) المرجع السابق، ج ٥، ص ١٤٧.

أخطأ ابن العماد في ترجمته لحياة رضي الدين الرحبـي فذكر عن وفيات سنة ٦٣١ هـ (وفيها الرضي الرخي بتشديد الخاء المعجمة نسبة إلى الرخ ناحية بنيسابور. لكن ابن أبـي أصيبعة يذكر اسمه الرحبـي، والرحبة هي بلدة والده وهي مدينة أسسها مالك التغلبـي على الفرات الأوسط في خلافة المأمون. وقد ولد رضي الدين بجزيرة ابن عمر الغربية منها. وكذلك ذكر اسمه صاحب فوات الوفيات، وربما خلط ابن العماد بين الرجل وشخصية أخرى لا ندري عنها شيئاً.

(٣٢) ابن أبـي أصيبعة، المرجع السابق، ص ٦٧٣.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٦٧٣، ٧٢٨.

(٣٤) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٧ . وأيضاً: ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج ٢، ص ٣١٥. وأيضاً: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٧٣ .
(٣٥) نقلاً عن: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٧٤ .
(٣٦) المرجع السابق، ص ٤٠٢ .
(٣٧) المرجع السابق، ص ٤٠٢ .
(٣٨) المرجع السابق، ص ٤٠٣ .
(٣٩) المرجع السابق، ص ٦٥٢ .
(٤٠) المرجع السابق، ص ٦٥٥ .
(٤١) المرجع السابق، ص ٣٤٩.
(٤٢) المرجع السابق، ص ٣٥٣.
(٤٣) المرجع السابق، ص ٣٥٣.
(٤٤) المرجع السابق، ص ٣٥٠.
(٤٥) المرجع السابق، ص ٣٤١.
(٤٦) المرجع السابق، ص ٦٥٠ .
(٤٧) المرجع السابق، ص ٦٦٢ .
(٤٨) المرجع السابق، ص ٣٣٢.
(٤٩) كمال السامرائي، التعريف بأبي بكر الرازي، ص ١٥ .
(٥٠) خالد ناجي، الرازي أستاذ الطب السريري، ص ٣٠، ص ٣٥.
(٥١) المرجع السابق، ص ٢٥ .
(٥٢) كمال السامرائي، التعريف بأبي بكر الرازي، ص ١٩ .
(٥٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٣٢.
(٥٤) المرجع السابق، ص ٧٣٢ .
(٥٥) المرجع السابق، ص ٧٣٢.
(٥٦) المرجع السابق، ص ٧٣٢.
(٥٧) المرجع السابق، ص ٧٣٢، ٧٣٣.
(٥٨) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧٩ .
(٥٩) المرجع السابق، ص ١٧٩ .
(٦٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٥٨ .
(٦١) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٣ .
(٦٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢٨.
(٦٣) المرجع السابق، ص ٧٢٨.

(٦٤) الكتبـي، فوات الوفيات، ص ٣١٦.
(٦٥) ابن أبـي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٣٤٤.
(٦٦) المرجع السابق، ص ٧٥٩.
(٦٧) المرجع السابق، ص ٧٥٧.
(٦٨) المرجع السابق، ص ٧٥٨.
(٦٩) المرجع السابق، ص ٧٥٨.
(٧٠) المرجع السابق، ص ٧٥٨.
(٧١) المرجع السابق، ص ٧٥٨.
(٧٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد ألوافي، ج ١، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٧٣) المرجع السابق، ص ١٤٤.
(٧٤) ابن أبـي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٥٩.
(٧٥) المرجع السابق، ص ٧٥٩.
(٧٦) المرجع السابق، ص ٧٥٩.
(٧٧) المرجع السابق، ص ٧٥٩.
(٧٨) المرجع السابق، ص ٧٥١.
(٧٩) المرجع السابق، ص ٧٥١.
(٨٠) المرجع السابق، ص ٧٥١.
(٨١) المرجع السابق، ص ٧٣٤.
(٨٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٨٤٠.
(٨٣) ابن أبـي أصيبعة، المرجع السابق، ص ٧٥١.
(٨٤) رحلة ابن جبير، ص ٢٦٥.
(٨٥) ابن أبـي أصيبعة، المرجع السابق، ص ٧٥١.
(٨٦) المرجع السابق، ص ٧٥٢.
(٨٧) المرجع السابق، ص ٧٥٥.
(٨٨) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٤٨٠.
(٨٩) ابن أبـي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٥٥.
(٩٠) المرجع السابق، ص ٧٥٥.
(٩١) المرجع السابق، ص ٧٥٥.
(٩٢) المرجع السابق، ص ٦٦٨.
(٩٣) المرجع السابق، ص ٦٦٩.
(٩٤) المرجع السابق، ص ٧٥٦.

(٩٥) المرجع السابق، ص ٦٦٣.
(٩٦) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ٩٦.
(٩٧) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٦٣.
(٩٨) المرجع السابق، ص ٥٩٩.
(٩٩) راجع: ماهر عبد القادر محمد، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٧، الفصل الأول.
(١٠٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٦٩٧ ـ ٦٩٨.
(١٠١) المرجع السابق، ص ٦٩٨.
(١٠٢) المرجع السابق، ص ٦٩٨.
(١٠٣) المرجع السابق، ص ٦٩٨.
(١٠٤) المرجع السابق، ص ٦٩٨.
(١٠٥) المرجع السابق، ص ٦٩٦، ٦٩٧.
(١٠٧) المرجع السابق، ص ٧٣٥ ـ ٧٣٦.
(١٠٨) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ص ٣١٥ - ٣١٧.
(١٠٩) ابن العماد، شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٧.
(١١٠) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٤١٠. ولم يذكره ابن شاكر الكتبي في ثبته.
(١١١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٧٢٩.
(١١٢) ماهر عبد القادر محمد، مقدمة في تاريخ الطب العربي، ص ٢٠. وأيضاً قارن: سامي حمارنة، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: الطب والصيدلة، دمشق ١٩٦٩، ص ٤٣. وأيضاً: ماهر عبد القادر محمد، العصر الذهبي للترجمة، ص ١٠٩.
(١١٣) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ١.
(١١٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٥٤.
(١١٥) المرجع السابق، ص ١٤٣.
(١١٦) المرجع السابق، ص ٣٧١.
(١١٧) المرجع السابق، ص ٣٤٩.
(١١٨) المرجع السابق، ص ٤٦١.
(١١٩) المرجع السابق، ص ٦٣٠.
(١٢٠) المرجع السابق، ص ٦٩٤.
(١٢١) المرجع السابق، ص ٧٦٧.

(١٢٢) راجع: تحقيق شرح فصول أبقراط لابن النفيس، د. ماهر عبد القادر محمد، د. يوسف زيدان. وأيضاً: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٤، ص ١١٢.

(١٢٣) طبعة فوات الوفيات التي اعتمدت عليها أصلاً هي التي حققها الأستاذ إحسان عباس وصدرت في بيروت عن دار الثقافة ولم تشر من قريب أو بعيد إلى الخطأ في الاسم، لكن اطلعت على طبعة أخرى جيدة بتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، صدرت عن مكتبة النهضة المصرية عام ١٩٥١ بالقاهرة حيث وردت إشارة للمحقق عن اسم صاحب الترجمة يقول فيها: (وكان في ب، ث (عبد الرحمن) وهو خطأ صوابه (عبد الرحيم) عن الشذرات والذهبي والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٧٧، وتاريخ ابن الأثير وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ١/ ٢٦١) هامش ص ٥٦٣، وهذا مما يدل على أن المحقق عثر على الخطأ في بعض المصادر وربما نقل بروكلمان عن مصادر ذكرت هذا الخطأ.

(١٢٤) خير الدين الزركلي، الأعلام، ج ٤، ص ١٢٢.

(١٢٥) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ٥، ص ٢٠٩.

هوامش القسم الثاني

(١) هو علاء الدين ابن أبي الحزم، القرشي الدمشقي، المعروف بابن النفيس الحكيم، ولد في القرش قرب دمشق عام ٦٠٧ هـ على الأرجح، درس الطب في مصر والشام على يد الدخوار (ت ٦٢٨ هـ) الذي كان يعمل بالبيمارستان النوري بدمشق. كما تعلم على عمران الإسرائيلي(ت ٦٣٧ هـ) أحد أطباء البيمارستان النوري وزميل الدخوار، ثم رحل ابن النفيس إلى مصر واستقر مقامه بها، فعلم بالمدرسة المسرورية، وتولى رياسة البيمارستان المنصوري الذي أسسه سيف الدين قلاوون. وتوفي ابن النفيس يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ بالقاهرة.

راجع:

- ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، طبعة ١٩٦٦، ج ١٣، ص ٣١٣.

- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١، ج ٧، ص ٣٧٧.

- السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية، بدون تاريخ، ج ٥، ص ١٢٩.

- ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة مصر، ج ٥، ص ٤٠١.

وراجع بصفة خاصة إصدارات د. يوسف زيدان عن ابن النفيس.

(٢) تميز عصر ابن النفيس بالأحداث السياسية الكبرى، فقد نزل الفرنجة في دمياط ببر مصر، وأمكن صدهم في فارسكور واعتقال لويس التاسع في المنصورة، وهجوم هولاكو على بغداد وهدمها سنة ٦٥٦هـ، وهزيمة التتار في حلب وفتحها سنة ٦٧٦ هـ، وهجوم ملك النوبة على أسوان سنة ٦٧٤ هـ، والوباء الذي فتك بأهل مصر سنة ٦٧١ هـ، ونزاع المماليك على السلطة.

راجع:

- ماهر عبد القادر محمد، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم

العربية، بيروت، ١٩٨٨.

- ابن النفيس، كتاب شرح فصول أبقراط، تقديم وتحقيق دكتور ماهر عبد القادر محمد، د. يوسف زيدان، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٩ ـ ٤٠.

- بول غليونجي، ابن النفيس، أعلام العرب (١٠٤) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، ص ٩٣ وما بعدها. راجع أيضاً ما كتبه د. يوسف زيدان عن ابن النفيس ومؤلفاته، ونشراته لتحقيق كتابات ابن النفيس.

(٣) يذكر اليافعي المكي أنه (شيخ الطب بالديار المصرية وصاحب التصانيف وأحد من انتهت إليه معرفة الطب) ويذكر جلال الدين السيوطي الرأي نفسه.

راجع:

- اليافعي المكي، مرآة الجنان، ج ٤، ص ٢٠٨.

- السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصر، ج ١، ص ٢٦٠.

(٤) يذكر السبكي في الطبقات أن ابن النفيس (كان فقيهاً على مذهب الشافعي) وكذلك رأى إسماعيل باشا البغدادي، صاحب هدية العارفين، وعبد الصاحب عمران مؤلف كتاب أعلام العرب.

راجع:

- السبكي، طبقات الشافعية، ص ١٢٩.

- إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين، ص ٧١٤.

- عبد الصاحب عمران، أعلام العرب في العلوم والفنون، ص ١٩٢.

(٥) راجع موقفه من التحليل على ما سنذكر في التحليل والتحليل الداخلي.

(٦) يقول أمين خير الله: (وإلى جانب الطب برع في اللغة والمنطق..) ويذكر عبد الصاحب عمران: (وكان عالماً بالمنطق والعربية مشاركاً في عدة فنون..) المرجع السابق، الموضع السابق.

(٧) ماكس مايرهوف، العلم والطب، ص ٤٩٣.

(٨) المرجع السابق، ص ٥٠١ ـ ٥٠٢.

(٩) الدوميلي، العلم عند العرب، ص ٣٢٣.

(١٠) المرجع السابق، ص ٣٢٦.

(١١) شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(١٣) تيرنر، الكشف العلمي، ص ٢٥، ٢٦.

(١٤) المرجع السابق، ص ٥٥.

(١٥) المرجع السابق، ص ٥٦ .
(١٦) عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٩١ .
(١٧) عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب. ص ٩٧ ـ ٩٨ .
(١٨) المرجع السابق، ص ٩٨ .
(١٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٩٣ .
(٢٠) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص ٢٥٠ .
(٢١) المرجع السابق، ص ٢٥٢ . وأيضاً: القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١
(٢٢) زيجرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٦٥ .
(٢٣) أمين أسعد خير الله، الطب العربي، ص ١٧٠ .
(٢٤) بول غليونجي، ابن النفيس، ص ١١٥ .
(٢٥) المرجع السابق، ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٢٦) سلمان قطاية، ابن النفيس، ص ٥١ .
(٢٧) بول غليونجي، المرجع السابق، ص ١١٦
(٢٨) سلمان قطاية، المرجع السابق، ص ٥٨ .
(٢٩) بول غليونجي، المرجع السابق، ص ١٢٧ .
(٣٠) المرجع السابق، ص ٧١.
(٣١) المرجع السابق، ص ١٠٩ .
(٣٢) المرجع السابق، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .
(٣٣) المرجع السابق، ص ١١٠ .
(٣٤) المرجع السابق، ص ١١٠ .
(٣٥) علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، ص ١٢٠ .
(٣٦) المرجع السابق، ص ١٢٢ .
(٣٧) ماهر عبد القادر محمد، مناهج ومشكلات العلوم: الاستقراء والعلوم الطبيعية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٢، ص ١٥١ ـ ١٥٤ .
(٣٨) المرجع السابق، ص ١٨٠ ـ ١٨٤ .
(٣٩) ابن النفيس، كتاب شرح فصول أبقراط، ص ٩٢ .
(٤٠) المرجع السابق، ص ٩٤ .
(٤١) المرجع السابق، ص ٩٤ .
(٤٢) ماهر عبد القادر محمد، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٨، ص ١٤١ .

(٤٣) عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص ٢١ .
(٤٤) المرجع السابق، ص ٢٤ .
(٤٥) حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، ص ١٣٢ .
(٤٦) المرجع السابق، ص ١٣٢ .
(٤٧) المرجع السابق، ص ١٣٢ .
(٤٨) المرجع السابق، ص ١٣٢، ١٣٣ .
(٤٩) المرجع السابق، ص ١٣٣ .
(٥٠) المرجع السابق، ص ٢١٥ .
(٥١) المرجع السابق، ص ١٠٠ .
(٥٢) علي سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ص ١٣٩ .

هوامـش القسـم الثالـث

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٧.
(٢) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٤٧ ـ ٤٨.
(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٢٩.
(٤) أحمد عيسى، معجم الأطباء، ص ١١٤ ـ ١١٦.
(٥) أسامة عانوتي، ابن أبـي أصيبعة، تعريف وتقويم، ص ١٠.
(٦) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ص ١٣٧.
(٧) أسامة العانوتي، المرجع السابق، ص ١٠.
(٨) ماكس مايرهوف، ابن أبـي أصيبعة، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، ص ٦٩ ـ ٧١.
(٩) ابن أبـي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٤٠٣.
(١٠) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٥٣.
(١١) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٥.
(١٢) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٥.
(١٣) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٦.
(١٤) زيجرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٦٣.
(١٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٣٩٥.
(١٦) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٥٦.
(١٧) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.
(١٨) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٥١.
(١٩) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٥١.
(٢٠) المرجع السابق، ج ٣، ص ١٨٧.
(٢١) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٧.
(٢٢) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.
(٢٣) يبدو هذا الجانبُ بوضوح في تنظيم مهنة الطب في العالم الإسلامي منذ فترة مبكرة، إذ اشترط في وضع الشرابخانات داخل البيمارستانات أن تقدم الدواء للمريض بناءً على وصفة، ولا ينبغي للصيدلاني أن يقدم دواءً للمريض بدون مستند من الطبيب المسئول (وصفة طبية).

(٢٤) لا شك أن القواعد الأخلاقية لتنظيم مهنة الطب التي وضعها المسلمون الأوائل أثرت في الغرب بحيث وجدنا أن الصيدليات في العالم الغربي الحديث الآن لا تقوم بصرف الأدوية الخطيرة مثل المضادات الحيوية وغيرها بدون وصفة طبية من الطبيب، على حين أن معظم البلاد العربية والإسلامية لا تلتزم بهذه القاعدة، ويمكن للمريض أن يحصل على الدواء الذي يريده دون أن تكون لديه وصفة طبية. إن هذا الجانب يطلعنا على أن أصولنا وقواعدنا التي سبق أن وضعها الأسلاف لتنظيم هذه المهنة الجليلة، اقتبسها الغرب وعمل على الالتزام بها لما فيها من نفع وفائدة.

راجع: ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٣٩٠ ـ ٤٠٢. ماهر عبد القادر محمد علي، دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٢.

(٢٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٣٩٦.

(٢٦) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣١٨.

(٢٧) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٢٨) أسامة عانوتي، ابن أبي أصيبعة، تعريف وتقديم، ص ٣١.

(٢٩) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٣١٦.

(٣٠) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٢٩.

(٣١) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٩٠.

(٣٢) أسامة عانوتي، ابن أبي أصيبعة، ص ٢٢.

(٣٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٢٨٦.

(٣٤) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٣٥) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٨٢.

(٣٦) المرجع السابق، ج ٣، ص ٣٨٦.

(٣٧) المرجع السابق، ج ٣، ص ٤٣٥.

(٣٨) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٢٤. وأيضاً: ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٣٩) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٤٠) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٧١.

(٤١) ابن أبي أصيبعة، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٣٩.

(٤٢) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٤٤.

(٤٣) ابن النديم، الفهرست، ص ٦٣ ـ ٦٤

(٤٤) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥.

(٤٥) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ١٠٣ .
(٤٦) دي لاسي أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ص ٢٤٧ .
(٤٧) عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ١١٧ .
(٤٨) ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ص ٢ .
(٤٩) محمد شحادة كرزون، ابن أبي أصيبعة ومصنفه في طبقات الأطباء، ص ١٤٩ .
(٥٠) فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ٩٥ .
(٥١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

المصادر والمراجع

أهـم المصـادر:

١ ــ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي (ت ٦٦٨ هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٣ ــ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٢٩٠ هـ.

٤ ــ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١.

٥ ــ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٦١٤ هـ)، رحلة ابن جبير، طبعة مصر، ١٣٥٦ هـ.

٧ ــ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ.

٨ ــ ابن سينا، الشيخ الرئيس أبو علي بن علي بن سينا (ت ٤٢٨ هـ)، القانون في الطب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٩ ــ ابن العبري، أبو الفرج جريجوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ)، تاريخ مختصر الدول، بيروت، بدون تاريخ.

١٠ ــ ابن العماد الحنبلي، عبد الحق، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة مصر، ١٣٥٠ هـ.

١١ ــ القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)، تأريخ الحكماء، وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة مصر، بدون تاريخ.

١٢ ــ القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، مطبعة دار الكتب المصرية، ج ٣، ١٩٥٥.

١٤ ــ ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، طبعة ١٩٦٦، طبعة ١٩٧٧، ج ١٢، ج ١٣.
١٥ ــ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ٤، القاهرة، ١٩٥٨.
١٦ ــ ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) لسان العرب، مطبعة دار لسان العرب، بيروت، بدون تاريخ.
١٧ ــ المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بكتاب الخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
١٨ ــ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق ونشر مصطفى زيادة، ج ١، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة ١٩٣٩ م.
١٩ ــ زاده، طاش كبرى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، مراجعة وتحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٨.
٢٠ ــ السيوطي، جلال الدين السيوطي الشافعي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر، ج ١، بدون تاريخ.
٢١ ــ البيهقي، ظهير الدين (ت ٥٦٥ هـ)، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، مطبعة الترقي ١٩٤٦.
٢٢ ــ البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين المجلد الأول، طهران، ط ٣، ١٩٤٧، إستانبول ١٩٥١.
٢٣ ــ الخوانساري، محمد باقر الموسوي الأصبهاني، روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، تحقيق أسد الله إسماعيليان، مكتبة إسماعيليان، طهران، قم، ج ٣، ١٣٩١ هـ.
٢٤ ــ الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.
٢٥ ــ الأندلسي، صاعد، طبقات الأمم، بيروت، بدون تاريخ.

أهــم الـمـراجــع:

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي(ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة، بيروت، تقديم سميح الزين، ط ٤، ١٩٨٧.
- ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي لملقب بابن البيطار، (ت ٦٤٦ هـ)، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، المجلد الأول، بدون تاريخ.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٧١.
- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة المعهد العلمي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥.
- ابن العبري، أبو الفرج جريجوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ)، تاريخ مختصر الدول، بيروت.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ)، تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزوني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة مصر، بدون تاريخ.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧.
- ابن النديم، أبو الفرج إسحاق بن يعقوب (ت ٣٨٥ هـ)، الفهرست، المكتبة التجارية، مصر، ١٣٤٨ هـ.
- النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٥١.
- ابن النفيس، شرح فصول أبقراط، تحقيق د. ماهر عبد القادر محمد، د. يوسف زيدان، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٨.

مـؤلـفـات عـربيـة:

- الشطي، أحمد شوكت، الطب عند العرب، مؤسسة المطبوعات الحديثة، سلسلة مع العرب، ٢٧، بدون تاريخ.
- الزركلي، خير الدين، قاموس تراجم الرجال والنساء، ج ٨، دار العلم للملايين، بيروت.
- النشار، علي سامي، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ هـ إلى يومنا هذا: (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة)، ط ١، مصر، ١٩٤١.
- قاسم، محمد محمود الحاج، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، بغداد، ١٩٧٤.
- محمد، ماهر عبد القادر، حنين بن إسحاق: العصر الذهبي للترجمة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧.
- محمد، ماهر عبد القادر، دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩١.
- محمد، ماهر عبد القادر، مقدمة في تاريخ الطب العربي، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٨٨.
- فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠.
- محمد شحادة كرزون، ابن أبي أصيبعة ومصنفه في طبقات الأطباء، التراث العربي، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد ٢٤، يوليو ١٩٨٦، السنة السادسة، ص ص ١٤٥ ـ ١٥٨.
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧.
- أحمد عيسى، معجم الأطباء: ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٨٢.
- أسامة عانوتي، ابن أبي أصيبعة، تعريف وتقديم، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٥.

ـ خليل حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨.
ـ عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية.

ترجمات:

ـ الدوميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، دار القلم، ١٩٦٢.
ـ بامات، حيدر، إسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية، ترجمة ماهر عبد القادر محمد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٣.
ـ بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج ٤، ترجمة السيد يعقوب بكر، رمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥.
ـ هونكه، زغريد، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوربة، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة مارون عيسى الخوري، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٦، ١٩٨١.
ـ فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة: صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٣.
ـ دي لاسي أوليري، مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، ترجمة: تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، وقد ترجمه أيضاً وهيب كامل وراجعه زكي علي، بعنوان: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة الألف كتاب، ٣٩٥، القاهرة، ١٩٦٢.
ـ ماكس مايرهوف، ابن أبي أصيبعة، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول.

الفهـرس